محمد حسنين هيكل

مدافع آية الله

قصة إيران والثورة

" لو كان لي كالله في فلك يد   لم أبق للأفلاك من آثار
وخلقت أفلاكاً تدور مكانها   وتسير حسب مشيئة الأحرار "
(رباعيات عمر الخيام)

" كم فرقة عسكرية تتبع البابا "
(قول منسوب إلى " ستالين ")

" ولكن .. من هو الخميني ؟ !! "
(الامبراطورة فرح في ابريل ١٩٧٨)

مقدمة الطبعة العربية

اقتربت من " دراما " الثورة الإيرانية وهي ما زالت عند فجرها ، وكان الأفق ما زال معتماً من حولها ، ولم يكن الخيط الأبيض قد استبان بعد من الخيط الأسود فيها . كان نجاح الثورة وارداً ، وكان ضربها وارداً أيضاً .

كان ذلك عندما التقيت بـ " آية الله روح الله الموسوي الخميني " لأول مرة في باريس يوم الواحد والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٧٨ . وأعترف أن ما رأيته استهواني وقتها وشدني إليه . فقد شعرت أنني أمام تجربة فريدة في التاريخ الحديث .

كنت قبل ذلك أعتقد أن " الثورة الشعبية " بالمعنى الحرفي لهذا التعبير قد فات زمانها ، ذلك أن اختراع الدبابات والمدافع المنصوبة على أبراجها قد قلب موازين القوى بين الجماهير الثائرة وبين السلطة الحاكمة . وتصورت – بناء على التجربة الثورية المصرية وتجارب أخرى في العالم العربي والعالم الثالث عموماً - أن أي ثورة جديدة لم تعد تملك الآن إلا أحد خيارين :

- أن تجعل من القوات المسلحة - بدباباتها – طليعة لزحفها .
- أو أن تقوم بشكل ما بتحييد القوات المسلحة والإلتفاف وراءها – أو أمامها – واصلة إلى أهدافها .

كان ظني أن الثورة السوفيتية هي آخر ثورة استطاعت فيها الجماهير غير المسلحة أن تواجه جيش السلطة وان تنتصر عليه . وحتى الجيش الذي واجهه الشيوعيون في روسيا القيصرية كان جيشاً مهزوماً وضائعاً ، فقد تسعة أعشار سلاحه أمام الالمان قبل أن يفقد العشر الباقي منه أمام الثوار .

كانت الثورة الإيرانية – على هذا النحو – شيئاً يختلف عن كل ما رأيناه وعرفناه على طول المسافة الممتدة من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٧٧ – ستون سنة كاملة .

ثورة شعبية ، ثورة جماهير عزلاء ، تواجه جيشاً في عنفوان قوته .

جيش جرى بناؤه واعداده وتسليحه بواسطة نظام بالغ القسوة والشدة ، حمّل نفسه بمسؤولية حفظ الأمن في منطقة هي أكثر مناطق عالم اليوم قلقاً وتوتراً وتعرضاً للخطر .

ثم هو إلى جانب ذلك جيش ترعاه وتسانده واحدة من أعتى القوى الدولية في العالم وفي التاريخ لأنها تعتبره – في البحر والجو والأرض – شرطيّها الحارس وديدبانها الذي لا تغمض له عين !

ثم هو – أخيراً – جيش تهابه وتخشاه وتحسب له ألف حساب كل تلك الدول – والدويلات – القابعة في خوف أو استكانة على شطآن الخليج والمحيط الهندي .

***

الثورة – بعد ذلك كله – ذات طابع يختلف كثيراً عن المألوف في العصر الحديث ... الثورة دينية . على وجه التحديد إسلامية .

***

الثورة - فوق ذلك – يقودها رجل لا تربطه بالشباب – وهو حافز الثورات عادة – أي صلة . على العكس . هو رجل جاوز الثمانين ، فإذا خطا فقدم على الأرض وقدم إلى القبر . وبصرف النظر عن عدد السنين فإن الرجل الذي يقود الثورة – بعد الثمانين – رجل لا علاقة له بزماننا ولا بالأفكار المؤثرة والفاعلة فيه . قلت عنه في مقال كتبته " للصنداي تيمس " وقتها أنه يبدو كرصاصة انطلقت من القرن السابع واستقرت في قلب القرن العشرين . بدا لي وقتها في باريس وكأنه فعلاً – شكلاً وموضوعاً – شخصية من شخصيات الفتنة الكبرى في الاسلام – عادت إلى الحياة بمعجزة لتقود معسكر (علي) بعد انتصار الأمويين وبعد مصارع الشهداء من آل البيت – وبعد ثلاثة عشر قرناً من الزمان أوصلتنا – بعد مسيرة تاريخية طويلة وشاقة – إلى عصر الصراع بين الشيوعية والرأسمالية ، والسباق على الأسلحة النووية ، والمنافسة للسيطرة على الفضاء ، وفض أسرار الخلايا (الجينات) ، والتحكم في الاليكترونات !

هكذا وجدتني " مدهوشاً " بـ " دراما " الثورة الإيرانية .

إنني لم أجد بديلاً لتعبير " الدهشة " في وصف موقفي مما كان يجري على الساحة الإيرانية .

فـ " الدهشة " ليست هي بالضبط " الانبهار " وليست هي بالضبط " الفضول " !

" الدهشة " شعور يفاجأ فيه الإنسان بما لم يكن يتوقع ، ثم يقوده هذا الشعور إلى محاولة البحث والتقصي والمتابعة علّه يصل إلى سد الفجوة بين ما كان يتوقع ، وبين ما وقع فعلاً .

وهذا ما حدث لي ...

وتلك المحاولة هي موضوع هذا الكتاب !

***

ومنذ ذاع أمر اهتمامي بـ " الدراما " الإيرانية إثر ما نشر لي عنها في الصحف العربية والعالمية – سئلت كثيراً ، وفي مراحل متعددة ومتتابعة :
- ماهو رأيي فيما يحدث على الساحة الإيرانية اليوم ؟ هل الثورة ما زالت في طريقها ، أو هل ضاع منها الطريق ؟ هل هي ثورة أكلت أبناءها كما تفعل بعض الثورات ، أو هي ثورة أكلها أبناؤها كما قال بعضهم عن الثورة الايرانية بالذات ؟

وكان ردي دائماً أن هناك أسئلة يصعب –بل يستحيل – الرد عليها " بلا " أو " نعم " .

إن " الثورة " – الثورة عموماً – قضية معقدة .

إن الثورة أشبه ما تكون بعملية انفجار هائلة ، تجيء بعد أن يكون شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، قد تحملوا بأكثر مما تحتمله طاقتهم اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، وهم في عملية الانفجار يحطمون ليس قيودهم وسلاسلهم فقط ولكن كل الحدود والسدود ، ثم يحاولون وضع اساس مختلف لمجتمع جديد سيد وحر .

لكن " من " الذي يضع الاساس الجديد ؟ و " متى " ؟ و " كيف " ؟

اسئلة عويصة ، ظلت على طوال التاريخ – برغم كل ماقيل ويقال عن " قوانين الثورة " – بغير جواب.

وحتى الثورات "العلمية " التي اتخذت لنفسها هذ الوصف ، أو أسبغه عليها المتحمسون لها، تلك الثورات التي كانت تقودها طلائع حزبية منظمة، وتهديها عقائد اجتماعية محددة- لم تستطع أن تقدم أجوبة مقنعة، أو كافية لقضية الثورة وتعقيداتها. والثورة الشيوعية الكبرى نفسها شاهد، فالاتحاد السوفيتي لم يستطع حتى الآن أن يقدم حلاً لمسألة الحرية السياسية. كما أن الحزب الشيوعي القائد في الصين ذاب كتمثال من الملح أمام سطوة البيروقراطية ممثلة في الجهاز التنفيذي أو في القوات المسلحة بعد غياب مؤسسة "ماوتسي تونغ " ونفوذه الأسطورى الشخصي . والإتحاد السوفيتي والصين الشعبية هما أضخم التجارب الثورية في القرن العشرين. وليست هناك حاجة- بعد ذلك- للإشارة إلى " تشيكوسلوفاكيا " حيث أخضع حزب شيوعي حاكم بالقوة للغزو العسكري ، ولا إلى "بولندا " حيث تتصادم الآن بروليتاريا العمال مع حزب البروليتاريا !

إنني بالطبع لا أريد أن أقلل من أهمية ظاهرة " الثورة"، ولكني فقط أريد أن ألفت النظر إلى "إنسانية " هذه الظاهرة. فهما قيل عن " قوانين الثورة " وعن " علمية الثورة " - فإن الموضوع الأساسي لها- كما هو في التاريخ كله- هو موضوع الإنسان على القمم وعند السفوح وفوق القاع . الإنسان بكل مواريثه وبكل نزعاته، وبكل طموحاته، وبكل غرائزه. ثم إيقاع الزمن اللازم والضروري لإنضاج تجاربه وتمهيد الطرق الوعرة إلى مطالبه الحقة والعادلة.

وربما استطعت القول بأن الثورة تختصر المراحل، لكنه لا الثورة ولا أي شيء آخر في مقدوره أن يلغى الزمان وأن ينقل شعباً أو أمة من التخلف إلى التقدم ، وأن يخلق الموارد البشرية والطبيعية من الهواء ، وأن يحتكم للتنظيم والتخطيط والعلم والتكنولوجيا، وأن يعطي السيادة لقيم الحرية والعدل السياسي والاجتماعي - كل ذلك في طرفة عين، أو في عدد من السنين هي بحساب التاريخ طرفة عين!

من هنا- هكذا كنت أقول لسائلي- فإن الوقت ما زال مبكراً للحكم على الثورة الإيرانية. وربما كان أكثر ما نحتاجه في شأن الثورة الإيرانية اليوم ، هو محاولة الفهم أكثر من محاولة الحكم. وأتذكر أنني قلت في مؤتمر عام لاتحاد الصحفيين العالمي في دورته السابقة في مدينة " فلورانس " في إيطاليا:

- اننا نتعلم لغة شعب من الشعوب لكي نستطيع أن نتكلم معه، ولكن علينا أن نتعلم تاريخه إذا كنا نريد أن نفهمه.

هكذا تصبح أمامنا بدل القضية قضيتان:
* قضية الثورة في حد ذاتها كظاهرة إنسانية عامة.
* وقضية الشعب الثائر ذاته كتجربة تاريخية خاصة.

وبدون ذلك تصبح محاولاتنا رحلات إلى بحار الظلمات !

***

لكن محاولة "الفهم " ليس معناها السقوط في مهاوي "التبرير" .

والحقيقة- فيما أظن- أن الثورة الإيرانية لم تستطع مواجهة بعض التناقضات الطبيعية التي اعترضت طريقها بأسلوب مستنير. وكان التخوف من ذلك باديا منذ أول لحظة، وذلك بسبب الطبيعة الخاصة للعملية الثورية في إيران، ونوعية القيادة التاريخية التي تولت قيادتها.

ولعلي أزعم أنني ناقشت هذا مع "آية الله الخميني " في أول مرة لقيته فيها في فرنسا في شهر ديسمبر ١٩٧٨، وقبل أن يتحقق انتصار الثورة على أعدائها وينهار نظام الشاه ، وقبل أن يعود هو إلى إيران بثلاثة شهور كاملة.

ان مناقشاتي معه في ذلك الوقت نشرت في جريدة "الوطن " وغيرها من الجرائد العربية التي تنشر معها مقالاتي باللغة العربية ، وكان ذلك في شهر فبراير ١٩٧٩- أي نفس الشهر الذي عاد فيه الخميني إلى طهران.

قلت له ، ونشرما قلته في حينه:

- إذا استعملت تعبيراً عسكرياً لتصوير الوضع الآن، فإنني أظن أنك بسلاح الدين تستطيع أن تقوم بدور المدفعية البعيدة المدى وأن تهدم نظام الشاه فوق رؤوس أصحابه . لكن ذلك لا يحقق النصر. تحقيق النصر- في الثورة كما في الحرب- يتحقق بالمشاة الذين يحتلون المواقع ويتولون تطهيرها ويتحملون مسؤولية المحافظة عليها.

إنني أسمع دوي مدافعك، ولكني حتى الآن لا أرى أثرا لمشاتك.

إن المشاة في الثورة هم الكوادر السياسية، وهم جماعات الفنيين والخبراء القادرين على تنفيذ مهام الثورة وبرامجها.

ولم تكن لدى "الخميني "- كما أوردت في ذلك الوقت- إجابة مقنعة على هذا السؤال . وعلى أية حال فقد كان هدير المدافع ، وبروقها ورعودها، يغطي في ذلك الوقت كل الأسئلة والإجابات.

ومنذ ذلك الوقت المبكر، وعند الفجر من العملية الثورية، كانت هناك تناقضات ظاهرة للعيان لا تنتظر غير انتصار الثورة لكي تفرض نفسها:

١- التناقض بين رجال الدين ورجال السياسة، وتصورات ومفاهيم كلا الطرفين.
٢- التناقض بين الذين قاوموا من الخارج ضد نظام الشاه وبين الذين تحملوا من الداخل جبروت " الطاغوت " وسطوته، وأيهما له الحق الأول وأيهما تكون له الكلمة النافذة.
٣- التنافض بين فكرة الدين- وهي شاملة- وبين فكرة الوطنية- وهي محدودة.
٤- التنافض- أو التناقضات- بين الواقع الجديد في إيران وبين الواقع في المنطقة من حوله.
٥- التناقض بين الأحلام والحقائق في العلاقات الدولية والإقليمية وحتى المحلية، وبالذات مشاكل الأقليات العنصرية في إيران.
٦- التناقض بين الجماعات الثورية وبين المؤسسات الدائمة في إيران، وفي مقدمتها الجهاز الحكومي وجهاز القوات المسلحة.
وهكذا، وهكذا.

مجموعة متشابكة من التناقضات ربما يجملها العنوان الذي اختاره " لينين " لأطروحته الشهيرة عن "الثورة والدولة " . ولم يكن مؤكداً لي أن " الخميني " قد قرأ أطروحة " لينين "، وعلى فرض أنه كان قد قرأها فما أظن أنها كانت تفيده في كثير !

وقد كانت حركة هذه التناقضات على أشدها طوال الشهور الثلاثين- حتى الآن- للثورة.

في التناقض بين رجال الدين ورجال السياسة- مثلاً- اختفى مجلس الوزراء الأول الذي تولى الحكم كله بعد الثورة- " بازرجان "، " سنجابي "، " يزدي " ، إلى آخره !

في التناقض بين الخارج والداخل- مثلاً- عاد " أبو الحسن بني صدر"- أول رئيس للجمهورية الإسلامية في إيران- إلى المنفى في باريس، وذهب " آية الله بهشتي "- أول رئيس للحزب الجمهورى الإسلامي - إلى لحد في حديقة الزهراء، مثوى الشهداء قرب طهران .

في التناقض بين فكرة الدين وفكرة الوطنية- مثلاً- وجدت الثورة الإيرانية نفسها تتحول من ظاهرة إنسانية إلى ظاهرة شيعية محاصرة في إيران.

في التناقض بين الواقع الجديد في إيران وبين الواقع الإقليمي- مثلاً- وجدت إيران نفسها في حرب مسلحة مع العراق.

في التناقض بين الأحلام والحقائق- مثلاً- ضيعت الثورة الإيرانية سنة كاملة في مشكلة الرهائن تحت شعار " إذلال الولايات المتحدة " أعدى أعدائها، ووجدت الثورة نفسها في معارك مع "الأكراد" و" الأذربيجانيين " و " البالوش " - وهم من مواطنيها.

وفي التناقض بين الجماعات الثورية وبين المؤسسات الدائمة وجدت الثورة نفسها عاجزة حتى عن حماية قادتها.

لقد تصورت- مثلاً- أنها تستطيع أن تحل جهاز الأمن السياسى وتحرق ملفاته ، ولكنها عندما بدأت تواجه أعداءها وجدت نفسها بغير معلومات... بغير ذاكرة. وتصورت- مثلاً- أنها ليست في حاجة إلى إدارة، ولكنها اكتشفت أنها غير قادرة على التخطيط- فضلاً عن التنفيذ- في أي مجال من المجالات.

***

برغم ذلك كله ما زلت أقول إن الوقت مبكر بعد لإصدار الأحكام . فكل ما واجهته الثورة الإيرانية حتى الآن، هو ما واجهته وتواجهه أي ثورة تستحق هذا الوصف . فكل ثورة تواجه في العادة سلسلة مراحل متعاقبة.

فهي - أولاً- تعيش مرحلة الاندفاع : الحماسة شلالات هادرة ، والأحلام سحب طائرة... والسماء هي الحدود، هذا إذا كانت هناك حدود. في هذه المرحلة تكون الثورة شعارات ومبادئ لا يملك أحد أن يختلف معها، وهكذا تتجمع من حول الثورة قوى أوسع من قياداتها الحقيقية، ويكون لدى قيادات الثورة من سعة الصدر والتسامح والرغبة في طلب الإجماع وتحقيقه ما يدعوها إلى الاستعانة بهؤلاء الذين جاءوا إليها من غير طريقها.

تجيء بعد ذلك- ثانياً- مرحلة الحقيقة، رؤيتها أو الارتطام بها، ويكون ذلك حين تظهر مصاعب التغيير وأحياناً مستحيلاته، وحين يجيء مأزق التناقض بين الثورة والدولة. في هذه الحالة يكون أول

الضحايا هم الأصدقاء الذين جاءوا إلى الثورة من خارج صفوفها، يقع الخلاف بينهم وبين قيادات الثورة الحقيقية، وتلقى عليهم مسؤولية التعثر ليس لأن القوى الثورية تبحث عن كبش فداء ولكن لأن هذه القوى تكون مازالت بعد تحت تأثير أحلامها، غير قادرة على تصوّر أنه ليس كل الأحلام قابلة للتحقيق، فضلاً عن مشكلة الإيقاع الزمني اللازم للتحقيق ، وهي مشكلة لا يكفي لحلها هدير الشلالات أو ارتفاع السحب أو اتساع السماء إلى غير ما حدود!

إن الثورات تواجه هذه المرحلة بواحدة من اثنتين:

* إما أن تنظر إلى الحقيقة في عينها وتبدأ في مواجهة مشاكل التغيير وقضاياه بتعبئة كاملة للموارد والناس والظروف ،

* وإما أن تهرب من الحقيقة، تجرى وهي تتصور أنها تطارد أحلامها وهي في الواقع تطردها، فإذا هي توسع في الداخل مواقع أعدائها ، وإذا هي في الخارج تستعدي على نفسها خصومات أكبر وأعمق مما تسمح به ضرورات تعبئة الموارد والناس والظروف ، خصومات كان ممكناً حلها أو كان واجباً تأجيلها، لكن القيادات الثورية تتصور: خطأ في الغالب - أن عداواتها الداخلية والخارجية تعطيها الفرصة لبناء قاعدة قوية ، لكن مشكلة هذا النوع من القواعد أن رقعته تضيق مع كل يوم خصوصاً إذا التقت خصومات الخارج مع خصومات الداخل واشتدت الضغوط وساعدتها مصاعب التغيير.

إن الانزلاق إلى حمالة الهرب من الحقيقة يقود الثورة إلى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التراجع، وربما مرحلة الهزيمة.

ولقد شهد التاريخ من قبل ثورات تراجعت أو انهزمت قياداتها، ولكن مبادئها وأفكارها انتصرت وسادت. وعلى سبيل المثال فلقد هوت المقاصل على رؤوس كل قادة الثورة الفرنسية. وحتى روبسبير زعيم مرحلة الإرهاب الثوري في وجه الإرهاب المضاد للثورة فقد رأسه حين جاء الدور عليه- لكن مبادئ الثورة الفرنسية وأفكارها استطاعت أن تتجاوز عصر الإرهاب الثوري والإرهاب المضاد، وأن تتجاوز ظاهرة " بونابرت " ، وأن تتجاوز ظاهرة عودة " البوربون " إلى عرش فرنسا- لتؤكد بعد هذه العصور جميعاً سيادة الحرية والاخاء والمساواة وتفيض بها على أوروبا كلها والعالم بأسره- وليس فرنسا فقط !

لكن المأساة المروعة لدول العالم الثالث في العصر الحديث أنها جميعاً بنايا هشة في مواجهة رياح عاتية. وتراجع الثورة أو انهزامها يؤدي في الغالب إلى اندحار مبادئها وأفكارها أيضاً ، لأن الأقوياء الرافضين لهذه المبادئ والقيم يشددون ضغوطهم ولا يرفعون أيديهم إلا بعد أن يتأكدوا أن المثال الثوري قد أصبح أمثولة ثورية... عادت بها الأمور بعد الثورة إلى أسوأ مما كانت قبلها..

والسؤال الآن هو: أين تقف الثورة الإيرانية الآن؟

أكاد أقول إنها تقف عند مفترق الطرق في المرحلة الثانية- مرحلة مواجهة الحقيقة.

ثلاثون شهراً من عمرها لم تأخذها بعد إلى ما وراء هذه النقطة، وإن كانت هناك شواهد تدعو إلى القلق.

بقيت لي ملاحظة لا بد منها قبل أن أترك الكتاب بروي قصة الثورة الإيرانية كما تابعتها .

هذه الملاحظة هي أننى أعتذر مرة أخرى عن كتاب لي يقدم لقراء العربية بغير أسلوبى . ذلك أنني كتبته أصلاً باللغة الإنجليزية، ولم يكن في استطاعتي - مع رغبتي في ذلك- أن أقوم بترجمته بنفسي إلى اللغة العربية وإلا كان معنى ذلك انني أكتب كتابين... ذلك أن لكل لغة روحها وأسلوبها.

وأنا أعرف من تجارب سابقة لي أن تقديم كتاب مترجم لكاتب عربي له أسلوبه الذي عرفه الناس عنه تجربة غريبة ، أشبه ما تكون برجل يقدم نفسه للناس بغير زيه المألوف... عمامة فوق بذلة، أو عقال فوق مايوه استحمام - مثلاً- لكن هذه التجربة الغريبة بدت لا مفر منها- مع الأسف - إلا إذا حمّلت نفسي فوق ما أطيق وكتبت في نفس الموضوع كتابين وليس كتاباً واحداً !

والحقيقة أنني رفعت الحمل الذي كان يمكن. أن أحتمله ووضعته على عاتق الأساتذة الذين تولوا ترجمة الكتاب من الإنجليزية إلى العربية وهما : الدكتور (عبد الوهاب المسيري ، أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس، والأستاذ " الشريف خاطر " ، مدير عام الدراما والتخطيط بالشبكة الثقافية بالإذاعة المصرية- واثقاً في غير مراجعة أنهما سيقومان معاً بجهد مشكور يقدم حلاً معقولاً للمشكلة.

***

ينبغي أن أنوّه أيضاً أنني عدت في الطبعة العربية لهذا الكتاب إلى العنوان الأصلى الذي عملت تحته طوال فترة إعداده ، وهو عنوان " مدافع آية الله " . وقد رأى الناشرون في بريطانيا وأمريكا أن يعدلوا عنه في اللحظة الأخيرة إلى عنوان تقليدي آخر هو "عودة آية الله " ، وكان رأيهم أن العنوان الأول يعطي للقارئ انطباعاً عن الكتاب لا يتفق مع حقيقته ، فقد يتصوره البعض على أنه عرض صحفي سريع لوقائع الثورة الإيرانية من نوع ما يصدر عادة عن بعض الأحداث الكبرى وكأنه من حبوب البلع السريع التي تمتلىء بها الصيدليات الآن . فالقارئ الإنجليزي أو الأمريكي- في رأيهم- لا يعرف أن اهتمامي بإيران- وكتابي الأول عن الثورة الإيرانية الأولى أيام الدكتور " محمد مصدق "- يعود إلى قرابة ثلاثين سنة مضت. ولقد تصورت أن القارئ العربي يعرف الحقيقة، وهكذا رجحت أن أعود في الطبعة المقدمة إليه لعنواني الأصلي الذى عشت معه سنتين في الإعداد لهذا الكتاب.

***

ثم أترك الكتاب لهؤلاء الذين دفعتهم النوايا الحسنة إلى طلبه... راجياً وداعياً !

محمد حسنين هيكل

مقدمة

أخذت الثورة الإيرانية معظم الناس على حين غرة . فقد كانت الحكومات والجماهير تكتفي بأن تنظر إلى هذا البلد على أنه "جزيرة من الاستقرار " وسط منطقة يشوبها العنف وتنسم بالتفجر- وذلك هو. الوصف الذي استعمله الرئيس الأمريكي السابق " جيمي كارتر ". وعلى ذلك فإن الاضطرابات التى أدت إلى إقصاء الشاه عن عرشه، وقيام نظام إسلامي بعده بقيادة عدوّه اللدود "آية الله الخميني "، لم تكن ظاهرة منعزلة. وإنما كانت وببساطة، كما أرجو أن أبين خلال هذه الصفحات، آخر فصل في عملية تاريخية طويلة تعود جذورها إلى الميراث القومي والديني للشعب الإيراني، تفجرت ثم أخمدت، أثناء الأزمة التي نجمت عن قيام الدكتور " محمد مصدق " بتأميم صناعة البترول عام ١٩٥٠- ١٩٥٣، وعند ذلك أخذت شكلاً سرياً إلى أن انفجرت بشكل نهائي عام ١٩٧٨ – ١٩٧٩ .

من خلال هذا الشكل الأخير الذي عبّر عن الثورة، أصبحت شيئاً يتخطى دلالاتها المحلية، إذ أنها تضمنت العديد من العناصر التي تهيمن على العقد الذي بدأناه : وهي : البعث الإسلامي، ومشكلة الطاقة، والتوزيع الجديد لثروة العالم ، والتنافس بين القوتين الأعظم . كل هذه العناصر تضافرت لتحوّل منطقة الخليج إلى مركز الجاذبية في العالم . ولا شك أن ما حدث في إيران قد ترك أثرا علينا كلنا ، وقد لا يكون من قبيل المبالغة أن نطبق على إيران نفس كلمات "نابليون " التي أطلقها على مصر ذات مرة من أنها " أكثر البلاد أهمية " .

وعلاقتي بإيران علاقة طويلة، ففي مرحلة الشباب الباكر كنت أشغل وظيفة المراسل المتجول في الشرق الأوسط لجريدة " أخبار اليوم "، وكان بين المهام التي قمت بها تغطية أزمة البترول الإيرانية عام ١٩٥٠- ١٩٥١. وقضيت فترات طويلة في إيران، وسافرت إلى كل أنحائها، وقابلت كل قيادات العهد القديم من السياسيين أمثال " السيد ضياء الدين طباطبائي "، وقوام السلطنة، والدكتور " مصدق " بطبيعة الحال، وأهم رجل من رجال الدين الشيعة في ذلك الوقت ومؤيد "مصدق " المتحمس (آية الله كاشاني ". وفي ذلك الوقت أيضاً دارت أول أحاديثي مع الشاه، كما تعرفت على شقيقته التوأم الأميرة " أشرف " ، التي كان زوجها الأسبق " أحمد شفيق "- وهو مصري- صديقاً لي .

كانت خلاصة هذه التجربة كتابي الأول ، " إيران فوق بركان " الذي صدر بالعربية عام ١٩٥١، وكان كتاباً حسن الحظ مع قرائه. والكتاب الأول بالنسبة لأى كاتب يشبه الحب الأول- ذكرى تبقى معه إلى زمن طويل، لذا فإنني تابعت الأحداث في إيران باهتمام خاص لمدة ثلاثين عاماً تقريباً ، منذ نشر كتابي " إيران فوق بركان ".

وعندما نشبت الثورة في العراق عام ١٩٥٨، تم الإستيلاء على كل الوثائق التي وجدت في رئاسة حلف بغداد وأرسلت إلى القاهرة في طائرة خاصة. (كان ذلك في الأيام الأولى للثورة، عندما كان قائدها اللواء " عبد الكريم قاسم " شديد الإعجاب بالرئيس " جمال عبد الناصر" ، وقبل أن يدب النزاع بينهما).

وكانت إيران عضواً أساسياً في حلف بغداد الذى كنت أهاجمه على صفحات " الأهرام ". وعندما أتيح لي الاطلاع على وثائق الحلف السرية، سنحت لي الفرصة لكي أراجع مدى صحة افتراضاتي عما كان يدور في اجتماعات الحلف. وكانت تجربة ممتعة. كما أننى تمكنت أيضاً فيما بعد من أن أقارن بين المذكرات التى كنت أدونها عندما كنت مراسلاً في إيران من جهة، وبين الحقائق التي تكشفت فيما بعد من خلال نشر مجموعات ضخمة من الوثائق الأمريكية. كل ذلك ساعدني أيضاً على أن أتأمل جذور الدراما التى وصلت ذروتها في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٩.

وفي أعقاب معارك ١٩٦٧ في الحرب مع إسرائيل، وجدت نفسي ألعب دوراً في إعادة صياغة السياسة المصرية تجاه إيران . فبعد حرب ١٩٦٧، شعر الكثيرون منا في مصر بالحاجة الماسة لتحالف جديد للقوى في الشرق الأوسط ، لا يضع حدا للخلافات بين العرب فحسب، بل لكي يحشد تأييد كل الدول الإسلامية في المنطقة في عملية المواجهة مع إسرائيل . وأحسسنا أن نزاعنا مع إيران، الذى يرجع تاريخه إلى أيام حلف بغداد، وأدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية، أصبح يقتضي مراجعة. وتلقيت في ذلك الوقت رسالة ودية من الشاه مع السيد " عباس مسعودي " صاحب وناشر جريدة " اطلاعات " اليومية الإيرانية . وحضر " السيد "مسعودي " ، الذي كان إلى جانب عمله الصحفي يشغل منصب نائب رئيس مجلس الشيوخ ، إلى القاهرة عام ١٩٦٨، ومرة أخرى عام ١٩٦٩. وبعد مناقشات طويلة اتفقنا فيما بيننا على الخطوات اللازمة لعودة العلاقات الدبلوماسية، بما في ذلك إعداد البيان المشترك. وأحب أن أتصور أنني ساهمت في إقناع الرئيس عبد الناصر بهذه الخطوة، التي كللت بالنجاح في نهاية الأمر، وقبل رحيله " في سبتمبر ١٩٧٠) بفترة وجيزة.

ولقد تلقيت دعوات عديدة من الشاه لزيارة طهران، وفي عام ١٩٧٥ أمكن لهذه الزيارة المتأخرة أن تتم. وأدرت أحاديث طويلة مع الشاه نفسه، ومع رئيس الوزراء وقتها " أمير عباس هوفيدا " ، ومع "جامشيد أموزجار" ، الذي خلف " أمير عباس " في منصب رئيس الوزراء بعد عامين : ومع الجنرال "نعمت الله ناصري " رئيس جهاز " السافاك " المخيف ، ومع آخرين عديدين . كما تمكنت أيضاً من مقابلة معارضي النظام والتحدث معهم ، بما في ذلك عديد من الطلبة الذين ينتمون إلى اليمين واليسار.

وبعد ثلاثة أعوام ، أعيدت الحلقة التي تربطني بالدراما الإيرانية مرة أخرى، لكن في مكان جديد، ومع ممثل جديد . فقد كنت في باريس في ديسمبر عام ١٩٧٨، وتلقيت دعوة لزيارة " آية الله الخميني " في بيته المتواضع في المنفى في " نوفل لو شاتو " . وقمت بهذه الزيارة، وقضيت في صحبته عدة ساعات، وتحدثت معه على انفراد وبالتفصيل في عدة موضوعات متنوعة.

وقد كان مقدراً لي أن أقابل " الخميني " مرة ثانية بعد عودته المظفرة إلى طهران، ومرة أخرى قضيت ما يقرب من يوم أتناقش معه في مدينة " قم " . كما تحدثت مع ابنه " أحمد"، مساعده الأساسي، ومع حفيده "حسين " ، وهو من أعضاء حاشيته ذوى الرأي . وأثناء هذه الزيارة سنحت لي الفرصة لمقابلة كل أعضاء المجلس الثوري، بما في ذلك " الحسن بني صدر" ، الذي أصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية الإيرانية، كذلك معظم الشخصيات القيادية الدينية، والساسة، والعسكريين المتصلين بالنظام الجديد. كما تحدثت طويلاً مع الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية. وقابلت كذلك " مهدي بازرجان " رئيس الوزراء، الذي استقبلني في مكتبه الضخم ، الذي رأيت فيه "هوفيدا " من قبل (وقد رفض "بازرجان " أن يستخدم منضدة سلفه المستديرة الفخمة ، وفضل عليها منضدة عادية وبعض المقاعد، كان قد أمر بوضعها في أحد أركان الغرفة). كان رئيس الوزراء كريماً معي إلى حد أنه جاء بدفتر مذكراته اليومية الخاصة والذي كان يدوّن فيه وقائع الأيام الأخيرة للنظام القديم ، وقرأ عليّ منها مقتطفات طويلة . كما أنني مدين بالشكر أيضاً وبشكل خاص لـ " ابراهيم يزدي " ، نائب رئيس الوزراء للشؤون الثورية في ذلك الوقت، لإتاحته الفرصة لي للإطلاع على ما تحويه خزانته من عدة وثائق هامة تتصل بنظام الشاه ، والتي ألقت كثيراً من الضوء على الأحداث الأخيرة.

وبعد فترة وجيزة من قيام الثورة وجدت نفسي مرة أخرى مستغرقاً في شؤون إيران بشكل مباشر، وسأشرح في الفصل الخامس عشر الطريقة التي أصبحت بها أحد الذين وجدوا أنفسهم مشتركين في المفاوضات من أجل إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين. وأحداث هذا الكتاب تبدأ بزيارتي للسفارة الأمريكية المحتلة في طهران ، لذا فمن المناسب للغاية أن ينتهي بإطلاق سراح الرهائن.

إن الوضع الإيراني خلال الأربعين عاماً الماضية يتسم بدرجة هائلة من التركيب. ولا أزعم أن ما قدمته في هذا الكتاب هو أكثر من اختيار لبعض العوامل - التحركات، والناس ، والأحداث- التي أسهمت في تكوين هذا الوضع . لكنني آمل أن أكون قد نقلت للقارئ شيئاً من افتتاني الدائم بهذا البلد، كما أرجو أن أكون قد أعطيت تفسيراً منطقياً مترابطاً لهذا التفجير السياسي ، الذي يعتقد البعض أن لا تفسير له.

وأود أن أشكر الدكتور " محمد زكي بدوي " العالم الإسلامي ومدير المركز الإسلامي بلندن، والاستاذ " فرد هاليداي " ، لقراءتهما مخطوطة الكتاب، ولاقتراحاتهما المفيدة ، كما أود أن أشكر كذلك زميلي الاستاذ " فهمي هويدي " الذي صاحبني في رحلة عمل شاقة إلى طهران.

بقي أنني مدين بأفضال كثيرة لآخرين لا تسمح ظروفهم بأن أشير صراحة إليهم ... رجال عالجوا الحوادث وفتحوا قلوبهم لي بغير تحفظ ، وأرجو أن أكون قد أحسنت فهمهم ، كما أني أتمنى أن يكون قد تحقق لي ما تمنيته منذ البداية وهو أن أكون منصفاً وأميناً مع الحوادث ومع الرجال .

محمد حسنين هيكل

الفصل الأول
في السفارة الأمريكية

في السنوات الأخيرة، دار الصراع في عدة أماكن بين القوتين الأعظم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وكانت هناك رموز حية تشهد على حركة هذا الصراع . وعلى سبيل المثال لا الحصر، يمكن الإشارة إلى حائط برلين وكوبا وأنجولا. وعبرت هذه المواجهة عن نفسها في قلب العاصمة الإيرانية طهران بشكل درامي لم تصله قط في أي مكان آخر، حيث تقف سفارتا القوتين الأعظم كجزيرتين للتنافس الدولي تحيط بهما الملايين الإيرانية المحتشدة.

ومن المناسب أن تكون إيران هي خلفية هذا المشهد الرمزي، إذ أنه لا يوجد بلد آخر له هذا الموقع والتاريخ المتميز ويصلح أن يكون مسرحاً لهذا الصراع بتلك الدرجة . وفي أفغانستان أعاد التدخل العسكري السوفيتي فجأة إلى ذاكرة العالم ، أن ما يفصل روسيا عن مياه المحيط الهندي الدافئة ، في الوقت الحالي ، ليس إلا خمسمائة كيلومتر من الأراضي الإيرانية . ومنذ فجر التاريخ كان هذا المعبر الأرضي بين الشرق الأوسط ووسط آسيا هو البوتقة الي تنصهر فيها الأجناس والحضارات. وهنا تتصادم المؤثرات الهندية بالمؤثرات العربية، وهنا قامت قوى أجنبية من أصول متباعدة مثل المغول واليونان بالتغلغل فيها وغزوها.

ومن أكثر الحقائق أهمية لتفهم الأحداث الأخيرة، أن إيران تعد أول إقليم في الشرق لم يدخله الإسلام والعروبة معاً في القرن السابع الميلادي . وإذا كان الأقباط في مصر والموارنة في لبنان قد قبلوا العروبة بغير الإسلام ، فإن مثل هذه المجموعات ظلت أقليات ، أما في إيران فتوجد أمة بأسرها فعلت عكس ذلك- قبلت الإسلام وليس العروبة.

ولعدة قرون سيطر الدين على حياة شعوب هذه المنطقة- المسلمون السنيون في الأمبراطورية العمانية، والشيعة في إيران، بعد ذلك ، وتحت تأثير الأفكار الغربية والأسلحة، ظهرت القومية كمفهوم جديد. إذ استنتج عديد من الوطنيين العقلاء في إيران (والشرق الأوسط وشمال أفريقبا وآسيا) أنه لو أصبح أبناء وطنهم واعين بأنفسهم كأفراد ينتمون لأمة قديمة معتزة بنفسها، لأمكنهم مقاومة دول الغرب التي اقتحمت عليهم أوطانهم . هذا المفهوم الجديد سيقوم ولا شك بالمساهمة في عملية ضم أعضاء الأقليات العرقية والدينية داخل إطار من الوحدة كمواطنين متساوين مع غيرهم في الحقوق . وهذا لا يعني أن القومية الجديدة لا تتفق مع الدين، بل على العكس، فكلما أصيبت القضية القومية بنكسة نجد الشعوب التي تناضل من أجل الحفاظ على استقلالها تهرع إلى قلعة معتقداتها الدينية، تحمي نفسها داخل أمان اليقين المطلق.

كانت إيران في القرن التاسع عشر هي أرض المعركة الدبلوماسية الى دارت بين بريطانيا وروسيا القيصرية من أجل التفوق والسيطرة . وخلال الثلاثين عاماً الماضية شاهدت نفس الأرض أبطالاً جدداً، إذ حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا وحل السوفيت محل القياصرة . وفي الوقت الحالي- حيث تنتج منطقة الخليج ٦٠% من البترول ، أهم سلعة في العالم ، كما أن بها ٧٠% من احتياطي البترول المعروف ، هذا بالإضافة إلى أنه يخرج من هذه المنطقة نصف النفط الذي يتدفق في أسواق العالم - يتجلى بوضوح أن العناصر التي يتم المقامرة والصراع عليها، أهم بكثير من تلك التي كان يتم الصراع عليها في القرن التاسع عشر.

ومن الأمور الملفتة للنظر أن السفارتين اللتين ترمزان لهذه المواجهة لم تكونا موقعين دبلوماسيين عاديين. فإن كلمة " سفارة " تستدعي لأذهان العديدين صورة مبنى واحد، أو حتى شقة، يرتفع عليها علم . ولكن هذا ليس هو الحال مع هاتين السفارتين، اللتين كان من حسن حظي أن أقوم بجولة في كل منهما مع دليل خاص . كان " فلاديمير فينو جرادوف " السفير السوفيتي في طهران عام ١٩٧٩ هو دليلي في زيارة طويلة لمجمع السفارة السوفيتية . كان " فينو جرادوف " صديقاً قديماً منذ الأيام التي عمل فيها سفيرا في القاهرة ، تلك الأعوام الأربعة الحرجة بعد رحيل الرئيس عبد الناصر، وهي الأعوام التي وقعت أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣. أما دليلي- أو أدلائي- في مجمع السفارة الأمريكية فكانوا هم أنفسهم الطلبة الذين قاموا باحتلالها.

تتكون السفارة السوفيتية من مجموعة من المباني يحيط بها سور مرتفع، توجد داخله عدة قصور وعدة منازل صغيرة وبيوت من طابق واحد، وكذا عمارات سكنية ومستشفى ومحطة لتوليد الكهرباء . وتوجد أيضاً بحيرة فيها قوارب للتجديف وبجع، وغابة صغيرة بها قطيع من الغزلان . وفي أحد جوانب المجمع يوجد قصر " الأتابك " . و " الأتابك " كلمة تركية تعني الحاكم أو الوصي على العرش ، وهذا أمر يحمل مفارقة تثير التأمل لأنه في هذا المكان في الماضي كان أحد المماليك الأتراك يتولى عملية تربية ولي العهد إلى أن يبلغ سن الرشد.

وقد تحوّل القصر الآن إلى متحف، يعقد فيه السفير حفلتي استقبال كبيرتين لضيوفه مرتين في العام- الأولى في احتفالات أول مايو- عيد العمال- والثانية في احتفالات ذكرى ثورة أكتوبر. وفي العادة يقوم الضيوف بجولة في الحجرة التي شهدت مؤتمر الثلاثة الكبار في ديسمبر ١٩٤٣. ويذكر السفير الزوّار دائماً بأن الرئيس "روزفلت " اختار أن يقيم في السفارة السوفيتية في فترة المؤتمر، وأن صداقته مع "ستالين " نشأت وتطورت في هذه الفترة . وعند عودته بعد نهاية المؤتمر، قال "روزفلت " للشعب الأمريكي " يمكنني القول أنني والمارشال- ستالين كنا متفاهمين للغاية " . وقد تركت الحجرة التي خصصت للرئيس " روزفلت " كما هي . أما " تشرشل " فكان يعبر الشارع ليأتي من السفارة البريطانية لحضور اجتماعات المؤتمر (وفي تلك الأيام كانت السفارتان البريطانية والروسية هما السفارتان اللتان تواجه إحداهما الأخرى بشكل واضح للعيان). في هذه الحجرة زرعت بذور سوء التفاهم الذي ظهر فيما بعد في يالطا التي جرى فيها تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ.

وبطبيعة الحال اتخذت الاحتياطات الشديدة لحماية مجمع السفارة، إذ عزّز السور المرتفع بسور مكهرب. كما أن العاملين داخل المجمع- من السفير إلى الطباخين- كانوا مواطنين سوفيت . ويتراوح عدد موظفي السفارة في الظروف العادية من ١٢٥ إلى ١٤٠، وحوالي ٣٦ حارساً .

ولا تكتظ السفارة الأمريكية بالإيحاءات التاريخية مثل السفارة السوفيتية. كما أنها لا تضم بحيرة يسبح فيها البجع أو غابة تمرح فيها الغزلان . ومع أنها مبنى معاصر وحسب ، إلا أنها ليست أقل تأثيراً في النفس . والسفارة مثلثة الشكل تشغل مساحة تبلغ ٦٠ هكتاراً وتقع في وسط المدينة ، وتضم حوالى ثلاثين مبنى متعددة الأشكال- مكتب كبير رئيسي، ومقر السفير، ومركز قيادة البعثة العسكرية، ومركز الاستعلامات، والقسم التجاري، ومنازل الملحقين العسكريين، وغيرها من المباني . وتعد مراكز الاتصال من المباني الهامة قي كلا السفارتين . فغابة الهوائيات المنتصبة التي تنبثق فوق أسطح السفارتين تعطي الانطباع أنه هنا فوق هذه الأرض الغريبة يتحدث الأمريكيون والروس مباشرة ويتشاجرون مع بعضهم في الهواء.

هنا إذن وقفت القوتان الأعظم الواحدة ضد الأخرى ، ولكل منهما مصالح وأهداف متناقضة للغاية. وقد تجد القوتان الأعظم في بعض الأجزاء الأخرى من العالم أن الحفاظ على التوازن القائم من مصلحتهما المشتركة ، ولكن ليس هذا هو الحال في إيران أو الخليج . إذ أن الأمريكيين في هذه المنطقة

كانوا قد حصلوا تقريبا على كل ما يريدون من البترول والسلطة وهيمنوا على كل الأمور، ولذا أرادوا أن يحتفظوا بالوضع القائم بأي ثمن . أما الروس من ناحية أخرى فقد تم استبعادهم من المنطقة على المستويين الاقتصادي والاستراتيجي ، على الرغم من أنها منطقة تقع على حدودهم ، وكان لهم فيها نفوذ لا يستهان به في الماضى . ولذا كان من مصلحتهم أن يروا الوضع القائم وقد تزعزع- تزعزع بعض الشيء وليس كلية لأنه يمكن القول أن الروس لا يحبون مشاهدة الثورات العنيفة وهى تضطرم عند عتبة دارهم ، وإنما يفضلون أن يروا الأمور وهي تتحول بالتدريج لصالحهم . ولذا نجد أن الروس هم الذين كانوا يبحثون عن التغيير في إيران ، وأن الأمريكيين هم الذين كانوا يقاومونه. وفي بلد من بلاد العالم الثالث مثل إيران ، نجد أن التغيير أمر حتمي تأخر عن وقته، وكل من يحاول أن يحافظ على الوضع القائم يجد نفسه لا محالة يلعب دور الشرطي ، أما هؤلاء الذين يبحثون عن التغيير فكثيراً ما يجدون أنفسهم مواجهين بأمر مختلف للغاية عن توقعاتهم وآمالهم .

وهكذا أصبحت السفارة الامريكية في طهران العصب الرئيسي للتحكم في المنطقة . وحينما بدأت إيران تلعب دور الشرطي في منطقة الخليج ، تحولت السفارة الأمريكية إلى مخفر للشرطة. ولم تعد مهمة موظفي السفارة مجرد الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الشاه، وإنما أصبحت حماية نظامه. أى أن السلطة رغم أنها كانت مقسمة بين الشاه في قصر " نيافاران " والأمريكيين، إلا أن مجمع السفارة في واقع الأمر أصبح أهم بقعة في كل إيران بأسرها.

لذا لم يكن من الغريب أن تكون عناصر من المخابرات المركزية بين موظفي السفارة واضحة للغاية. ولا يمكن لأحد الآن أن ينكر أن تدخل وكالة المخابرات الأمريكية هو الذي استرجع للشاه عرشه عام ١٩٥٣، وأن كل السفراء الأمريكيين الذين عينوا في إيران بعد ذلك كان لهم اتصال بوكالة المخابرات، إلى أن وصلت الأمور إلى نتيجتها المنطقية عام ١٩٧٣ حين عين " ريتشارد هيلمز " رئيس وكالة المخابرات آنذاك ، سفيرا لبلده في إيران .

***

كان الشاه يقابل مندوب وكالة المخابرات الأمريكية في طهران مرة كل أسبوع ، وكان الوقت المخصص لذلك هو يوم السبت الساعة التاسعة صباحاً ولمدة ساعتين . ولكن حينما ازدادت ثقة الشاه في نفسه، أخذت العلاقات بينه وبن السفارة في التغيير، إذ أنه كان يشعر بأن الأمريكيين يحتاجون إليه أكثر مما يحتاج هو إليهم ، بينما بدأ الأمريكيون يشعرون أن الأداة التي اختاروها للسيطرة على المنطقة بدأت تبدو عليها مظاهر روح تمجيد الذات ، الأمر الذي كانت له نتائج بالغة الإزعاج إلى درجة أن " وليم سيمون " وزير الخزانة في حكومة " نيكسون " وصف الشاه أمام لجنة العلاقات الخارجية بأنه "مهووس ومصاب بجنون العظمة " . وهكذا لم تعد مصالح الشاه والأمريكبين متماثلة. وبناء على هذا التغيير حدثت نتيجة غريبة بعض الشيء ، وإن كانت دون شك حتمية أيضاً ، وهي أن كلاً من الشاه والأمريكيين بدأ يتجسس على الآخر، فكان الشاه يحاول أن يجند العملاء في السفارة، بيما كانت السفارة تحاول بدورها أن تجند العملاء في القصر وقد نجح كل من الطرفين في محاولاته بعض الشيء .

وبعد قيام الثورة بفترة قصيرة قبض على الجنرال " نعمت الله ناصري " ، رئيس جهاز المخابرات المعروف بـ " السافاك " ، وقتل رمياً بالرصاص بعد ان حاول ان ينقذ نفسه بأن يقدم اعترافاً كاملاً . ولكن هذه المحاولة لم تنجح في استدرار عطف القضاة . وكان اسم عميل " السافاك " داخل السفارة الأمريكية أحد الأسرار التي كشفها للذين قاموا باعتقاله . وقد سمي هذا العميل الذي لم يكن في الواقع أمريكياً او ايرانياً ، بالاسم الحركي – حافظ . ويبدو أنه حينما اختارت " السافاك " اسم أشهر شعراء فارس فإنها كانت تحاكي بذلك المخابرات الألمانية التي أطلقت اسم " شيشرون " ، كاسم حركي ، على الخادم الألباني للسفير البريطاني في أنقرة ، وكان هذا الخادم يخدر سفيره كل ليلة ويأخذ مفاتيح خزانته

ثم يصور أخطر الوثائق فيها ويسلمها للألمان ، واستمرت هذه العملية معظم سنوات الحرب . وبعد ان كشف الجنرال " ناصري " شخصية هذا العميل ، اتصلت به السلطات الثورية سراً ، ووعدته بالأمان إذا ما استمر في نشاطه لصالحهم . فقام بهذه المهمة ولكن بنجاح محدود لأنه كان في حال فزع كاملة . ولكنه مع هذا قام بتسليمهم مجموعتين من الوثائق تضمنت برقيات متبادلة في أيام الشاه الأخيرة وأيام الثورة الأولى بين السفير " سوليفان " و " بروس لانجدون " القائم بالأعمال والذي حل محله من جهة ، و " سايروس فانس " والقسم الإيراني في وزارة الخارجية الأمريكية من جهة أخرى . وقد وصلت هذه البرقيات في نهاية الأمر إلى مكتب وزير الداخلية الجديد في الحكومة الثورية " آية الله هاشمي رافاسنجاني " ، وبعد التحقيق مع حافظ عدة مرات والحصول على ما كان تحت يديه من وثائق وأسرار ، وضع في سيارة مرسيدس مصفحة ضد الرصاص ، ثم في طائرة ذاهبة إلى باريس حث اختفى هناك.

كل هذا يعني أنه بحلول سبتمبر ١٩٧٩ كانت الحكومة الجديدة على دراية كاملة بالبرقيات المتبادلة بين واشنطن وطهران بخصوص الاجراءات اللازم اتخاذها مع الشاه . وكانت هذه المعلومات هيا التي أدت إلى احتلال الطلبة للسفارة في نوفمبر . حيث أن البرقيات كانت تدل على أن رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة كانت شيئاً خطط له منذ زمن بعيد. ولم تكن مجرد استجابة إلى نداء إنساني ملّح كما كان الزعم في ذلك الوقت.

وعلى سبيل المثال كانت إحدى الوثائق التي تم الإستيلاء عليها ورقة تقدير موقف كتبها " هنري برشت " مدير قسم الشؤون الإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكية. ومؤرخة بتاريخ أغسطس ١٩٧٩ وكتب عليها " سري للغاية . موضوع حساس " كانت الورقة بعنوان " التخطيط لحضور الشاه للولايات المتحدة"، وتبحث في ثلاث تساؤلات واسعة : ما هي الظروف الجديدة التي قد تبرر إدخال تغيير على موقف الولايات المتحدة ؟ وما هي الذرائع التي يجب البحث عنها للشاه ولوزارة الخارجية قبل ذهابه إلى هناك؟ وما هي الترتيبات التي يجب اتخاذها بالنسبة لموظفي السفارة حتى يمكن القيام بحمايتهم ؟

وتحت العنوان الأول تنبأ كاتب الورقة، بناء على تقديره للموقف، بأنه مع نهاية العام ستكون هناك فرصة كبيرة بأن يكون لإيران رئيس للجمهورية ومجلس تشريعي جديد، وعندئذ " يجب أن نخير الحكومة الجديدة أننا نرغب في إنهاء كل الموضوعات المعلقة في جدول الأعمال القديم بما في ذلك وضع الشاه " .. ويجب أن يحاط الإيرانيون علماً " عن الضغوط الشديدة التي تمارس كي يحضر الشاه إلى الولايات المتحدة وهي ضغوط نقاومها على الرغم من سياسة الباب المفتوح التقليدية الئي نتبناها ". ولكن الورقة أقترحت أنه " إذا لم تؤلف حكومة جديدة في نهاية العام ، فمن الممكن الدفاع عن الموقف القائل بالسماح للشاه بدخول الولايات المتحدة على أية حال . حتى نفرغ من هذه الخطوط الحتمية ". ثم استمرت الورقة على هذا النحو: " وسواء اتبعنا السيناريو الأول أو الثاني . فيجب علينا أن نهدف إلى إحداث تغيير إيجابي في موقفنا تجاه الشاه بحلول يناير ١٩٨٠" . وفي الختام ذكرت الورقة " أن خطر اختطاف الموظفين الأمريكيين بالسفارة كرهائن لا يزال قائما. على الرغم من أن هذا الخطر فد تناقص عما كان عليه الحال في الربيع " . وعلى كل حال فإنه " يجب ألا نتخذ أية خطوة نحو السماح للشاه بدخول الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن نكون قد عيّنا للسفارة قوة حراسة جدبدة أكثر فعالية وقبل أن توضع هذه القوة موضع الاختبار" .

إن رؤية وزارة الخارجية الأمريكية في أغسطس بالسماح للشاه بدخول الولايات المتحدة على أنه "خطوة حتمية" يدل على أن تأكيد واشنطن بأنه سمح له بالدخول في نوفمبر بسبب تدهور صحته إنما هو محض هراء. وعلى الرغم من تدهور صحته بالفعل، إلا أن هذا لم يغير اقتناع الإيرانيين الراسخ بأن ثمة مؤامرة قد دبرت، فهم كانوا يعلمون تمام العلم بأن الشاه كانا يرغب دائماً في أن يكون مكان نفيه هو الولايات المتحدة وليس مصر أو المغرب ، على أن تكون سويسرا هي المقر البديل المحتمل في شهور الشتاء. كما أنهم كانوا على دراية كذلك بالضغوط الشديدة التي كان يقوم بها البعض بالنيابة عن

الشاه والتي كان يتزعمها " هنري كيسنجر " و " دافيد روكفلر " فبنك " تشيس منهاتن " ، الذي كان يترأسه "روكفلر " كان هو القناة الأساسية التي تعاملت حكومة الشاه من خلالها مع الغرب. ومنذ عام ١٩٥٤ كان بنك " تشيس منهاتن " هو الذى يقوم بتسلم عائدات بيع البترول الإيراني إلى الغرب، وكذلك بأعمال مؤسسة بهلوي المصرفية ، وإذا كان متوسط دخل إيران من البترول ٣٠ بليون دولار سنوياً في فترة السنوات الخمس ٧٤- ٧٩ فإنه يمكننا أن نرى أن ثمة مبالغ هائلة من المال كانت موضع التعامل ولم يكن من الغريب قط أن تكون الضغوط التي تمارس من أجل هذا العميل الجيد شديدة للغاية.

***

وفي سبتمبر كان " إبراهيم يزدي " وزير خارجية إيران آنذاك في الأمم المتحدة في نيويورك بعد أن حضر اجتماع دول عدم الإنحياز في هافانا. وقد رتبت له ثلاثة اجتماعات مع " سايروس فانس " وزير الخارجية الأمريكية، الذي كان يود إقناع " يزدي " بعدة نقاط :
أولها : ان الأمريكيين يريدون من الحكومة الثورية أن تفهم أن الشاه من وجهة النظر الأمريكية قد أنتهى كلية.
ثانياً : أنهم لا يزالون يشعرون بأن الولايات المتحدة وإيران حلفاء طبيعيون بسبب مخاوفهم المشتركة من الاتحاد السوفيتي.
ثالثاً : ان الأمريكيين يتفهمون ويحترمون كلاً من الثورة الإيرانية والخميني .
رابعاً : ان الأمريكيين يأملون في إمكانية بداية صفحة جديدة في العلاقات الأمريكية الإيرانية، وأنهم مستعدون للنظر في الاقتراحات الرامية للوصول إلى هذا الهدف بأيسر الطرق.

وعاد " يزدي " إلى طهران حاملاً رسالة " فانس " معه ، وقدم تقريراً إلى " الخميني " ولكن الوثائق التي أخذها " حافظ " خلسة ، والتي كانت قد وقعت في حوزة الحكومة الثورية أثناء سفره بينت أن عدداً كبيراً من الأشخاص ذوي النفوذ كانوا يحثون الحكومة الأمريكية على إعطاء الشاه حق الالتجاء إلى الولايات المتحدة ، وأن الأمريكيين لم يبحثوا هذا الاحتمال بشكل جاد وحسب (وإن كانت السفارة الأمريكية في طهران عارضت الفكرة) وإنما كانوا يحاولون أيضاً الاتصال بالعناصر الساخطة في إيران، وبخاصة ضباط الجيش والأقليات في كردستان وأذربيجان (كما بينت الوثائق) ولذا فحينما نقل " يزدي " نقاط " فانس " لـ " الخميني " سأله الأخير : " هل تعني أنهم لم يخبروك بأي شيء عن ذهاب الشاه للولايات المتحدة؟ " وكانت دهشة " يزدي " شديدة بطبيعة الحال حينما عرف أسباب هذا السؤال الذي بدت لهجته مفعمة بالشك.

بعد هذه المقابلة بفترة وجيزة ذهب " لانجين " ، القائم بالأعمال لزيارة " يزدي " وطلب منه تدعيم الحراسة على السفارة. فسأله " يزدي " عن أسباب هذا الطلب ، فشرح له " لانجين " أن السفارة تعرضت بالفعل لعدة هجمات ، فأجابه وزير الخارجية الإيرانية أنه ذهب بنفسه إلى السفارة وبحث الأمر وأنه يعتقد أنه لا يوجد أي مجال للقلق . وكان كل من "يزدي " و " لانجين " في ذلك الوقت يعرف بطبيعة الحال إمكانية ذهاب الشاه إلى الولايات المتحدة، ولكن لم يكشف أي منهما للآخر عن معلوماته.

استمرت جهود الأمريكيين الرامية إلى إقامة بعض الجسور بينهم وبين السلطة الجديدة في طهران، فقد عقدوا بعض الأمل على " مهدي بازرجان " رئيس الوزراء، ولذا اتخذت ترتيبات نحو عقد لقاء بينه ، هو و"يزدي " مع " زيجنيو برجنسكي " مستشار " كارتر " للأمن القومي " في مدينة الجزائر أثناء وجودهم هناك بمناسبة احتفالات الجزائر بعيد استقلالها في أول نوفمبر. ولكن الشاه كان قد ترك مدينة مكسيكو إلى نيويورك يوم ٢٢ أكتوبر. وقبل أن يبدأ " يزدي " رحلته إلى مدينة الجزائر أرسل احتجاجه إلى القائم بالأعمال الأمريكي، على أن يناقش هذا الأمر مع " برجنسكي " ولكنهما حينما تقابلا، أنكر " برجنسكي " أي معرفة بالاحتجاج وفسر ذلك بأن الاحتجاج لا بد وأن يكون قد وصل إلى واشنطن بعد

رحيله عنها إلى مدينة الجزائر. وكل ما وعد به بأنه سيقوم ببحث الموضوع بعد عودته. ولكن الأوان كان قد فات، إذ أن " لانجين " كان قد أخبر القائم بأعمال رئيس الوزراء في طهران أن السبب وراء رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة هو الحاجة الملحة للعلاج الطبي ، وأن السماح له بدخول الولايات المتحدة كان لأسباب إنسانية محضة. ولكن هذا التفسير لم يكن مقنعاً حيث أن كل أعضاء المجلس الثوري كانوا يعرفون في ذلك الوقت أن زيارة الشاه كانت موضع نقاش لعدة شهور، كما كانت تسيطر عليهم ذكريات عام ١٩٥٣ المفزعة والتي جعلتهم دائبي الترقب للانقلابات المضادة التى يحيكها جهاز المخابرات المركزية.

ولذا ففى الثاني من نوفمبر، أثناء اللقاء الذي تم في مدينة الجزائر أصدر " الخميني " بيانه للطلبة يحثهم على أن يفتحوا عيونهم ويراقبوا مؤامرات الولايات المتحدة ، هذا " العدو الخبيث ". وبناء على ذلك قامت اللجنة الثورية داخل جامعة طهران باعتماد خطة للهجوم على السفارة الأمريكية، وهي عملية كان قد أعد لها في واقع الأمر منذ أوائل سبتمبر، حينما عرفت اللجنة بالوثائق التي هربها " حافظ " من السفارة، وعلى الرغم من أن حجة الإسلام "موسوي خوئيني " لم يكن عضواً في المجلس الثورى ، إلا أنه كان المسؤول عن أنشطة الطلبة أمام المجلس وكان أحمد ابن الإمام الخميني ، هو حلقة الاتصال بينه وبين أبيه. وقامت لجنة الجامعة ، تحت رعاية " خوئينى " بتنفيذ خطة الطوارئ لغزو السفارة والاستيلاء على بقية الوثائق التي كانوا يعلمون أنها ستزودهم بكثير من المعلومات عن سياسات الشاه واتجاهاته، استناداً إلى العينة التي هربها "حافظ " .

ولا يوجد شاهد أكثر درامية على تآكل النفوذ الأمريكي في إيران من أن السفارة ولمدة شهرين لم يكن عندها أية معلومات عن الهجوم الذي كان يدبر ضدها . هذا المكان الذي كان يعد لأعوام عدة المركز الذي تتجمع فيه يومياً كل المعلومات عن الشرق الأوسط أصبح لا يعلم بما يدور على عتبة داره، لقد كان موظفو السفارة يعملون ويعيشون في عزلة إلا من الاتصالات الرسمية بين "لانجين " و"يزدي " والتي كانت لا تتم إلا في فترات متباعدة.

وحينما عرف العالم عن طريق الصحف وشاشات التليفزيون بالهجوم على السفارة ، كان الانطباع العام أن الذين قاموا به هم جماعات من الغوغاء لا تخضع لأي نظام . وان أنباء وصول الشاه إلى الولايات المتحدة ومواعظ المتدينين المتعصبين دفعتهم إلى هذا العمل العفوي . مثل هذا التصور- كان بعيدا كل البعد عن الواقع ، فعندما استجوبت السلطات الثورية "حافظ " أعطاها كل ما يمكنه من معلومات عن السفارة- مواقع الحراس، ونقط الضعف التي كان يتصور وجودها في سور السفارة، وغيرها من المعلومات، كما زودهم بخريطة لكل مجمع السفارة . ولذلك حينما تم الهجوم نفذته فرقة مدربة جاهزة تعرف مهمتها تماما. ويبلغ عدد الطلبة الذين اشتركوا في التخطيط المبدئي تحت قيادة " خوئيني " بين أربعين أو خمسين ، وتم إبلاغ موعده إلى أكثر من ٤٥٠ طالباً ممن سموا أنفسهم بـ " المرابطين " (وهو الاسم الذي استخدمه المقاتلون الذين كانوا يرابطون في المواقع الأمامية لحراسة الثغور والحدود مع بيزنطة في السنوات الأولى للإسلام) ومن المحتمل أن عشرة من بينهم كانوا مسلحين بالمسدسات ولكهم في مجموعهم اعتمدوا أساسا على السواعد والإعداد الدقيق لإحراز النجاح في مهمتهم . حظيت فكرة التحرك ضد الأمريكيين بتشجيع "الخميني " الذي كان يعلم دون شك أن هناك تخطيطاً يجري لشيء ما، ولكن تفاصيل الهجوم على السفارة تركت لكل من "خوئيني " والطلبة.

خلال ثلاث ساعات تم كل شيء . ولما بدأت الجماهير في التجمع والهجوم ذهب " لانجين " إلى وزارة الخارجية ليقدم احتجاجه وليطلب الحماية. وعند عودته كانت السفارة قد احتلت، ولذا مكث خارجها، ولم يكن هناك مفر من أن يقضي فترة احتجازه في مبنى وزارة الخارجية. أما بقية موظفي السفارة فكانوا في حيرة من أمرهم . كيف يستجيبون لهذا الموقف . فكان أحد بحارة الأسطول القائمين بحراسة البوابة مسلحاً بمدفع رشاش، ولكنه لم يتلق أوامر بأن يطلق النيران . ولذا حينما سخرت منه

الجماهير قائلة " إن كنت تريد أن تطلق علينا النيران فلتفعل " ، لم يفعل شيئاً . وقد جرح هذا الجندي وجرد من سلاحه واستخدم الغاز المسيل للدموع في محاولة إيقاف المقتحمين ، كما أغلقت بعض أبواب الأمن المصنوعة من الصلب في بعض المباني . وفي الوقت نفسه كانت آلات فرم الأوراق تعمل بشكل مستمر كما كان يتم حرق بعض الوثائق ولكن دون جدوى . وقد أظهرت التفاصيل فيما بعد أن " الخميني " دهش وسر بأحداث الصباح ولعله كان يعتقد أنه لم يكن من الممكن احتلال كل السفارة - وبخاصة في مثل هذا الوقت القصير ودون خسائر في الأرواح.

***

ومن نتائج احتلال السفارة أن الطلبة، أو النخبة بينهم المسمين بالمرابطين، أصبحوا قوة سياسية بذاتها ، فهم الذين قاموا بالإعداد للهجوم وبتنفيذه، واستمروا في احتلال السفارة ، وهم الذين احتلوا العناوين الرئيسية للصحف العالمية ، وقد سنحت لي فرصة التعرف عليهم حين ذهبت إلى طهران في أوائل ديسمبر كي أرى بعيني ماذا يحدث ، شأني في ذلك شأن الصحفيين الآخرين . ودون أن أغرق في التفاؤل، كنت آمل، شأني في هذا أيضاً شأن الصحفيين الآخرين، أن أقابل بعض الطلبة. وكم كانت دهشتي حينما طلبني بالتليفون أحدهم بعد أن وصلت إلى طهران، وأخبرني أنهم قرأوا في إحدى الصحف عن وصولي وأنهم يعرفون مدى صداقتي لعبد الناصر ويودون مقابلتي .. " لدينا موضوعات كثيرة نريد أن نتحدث فيها معك "- كان هذا هو مضمون رسالتهم .

ظننت في بداية الأمر أن المكالمة التليفونية مجرد خدعة. وكانت وزارة الخارجية الإيرانية قد عينت لي مرافقاً رسمياً يتحدث الإنجليزية. وحينما أخبرته أنني أريد الذهاب إلى السفارة الأمريكية نظر إلي باستغراب، ولكنني أخبرته أنه من الأفضل أن نذهب ونرى . ولو كان في الأمر خدعة فلن يلحق الضرر بأحد. وهكذا بدأنا رحلتنا إلى هناك.

***

كانت الجماهير تموج خارج بوابة السفارة الرئيسية- تموج بالليل كما كانت تموج بالنهار، كما اكتشفت فيما بعد. إذ كان كثيرون من سكان طهران يذهبون إلى السفارة الأمريكية للتسلية وللمشاركة السياسية إن لم يكن هناك أمر آخر يشغلهم . هناك كانوا يستمعون للخطب والمواعظ التي تحملها اليهم مكبرات الصوت من داخل السفارة، وإلى مكبرات أخرى تدوي بصوت الموسيقى العسكرية. وفي خارج المبنى على الأرصفة كان ثمة أناس يبيعون تسجيلات على الكاسيت لمواعظ " الخميني " وجماعات تدرس القرآن وتستمع لتعاليم الإسلام . وبعض الفتيات اللاتي يرتدين الشادور يقدمن صوراً " للإمام " وكتباً عن الإسلام والعدالة الثورية ، بينما كانت هناك أخريات ترتدين البنطلونات " الجينز " يبعن كتابات " لينين " و" تروتسكي " وكتيبات ماركسية متنوعة.

هذه هي الثورة في أوضح أشكالها وأكثرها تميزا. ومن دواعي السخرية أن كل هذا كان يحدث في شارع كان يدعى في الماضي شارع " فرانكلين روزفلت " ولكنه يدعى الآن باسم العالم الديني الشعبي الذي مات مؤخرا - آيه الله محمود الطالقاني .

وبعد أن شق رفيقي طريقه خلال حشود الناس إلى أن وصل إلى أبواب السفارة وأعلن عن وصولنا، ظهر أربعة من الحرس الثوري وفتاة تحمل مدفعا رشاشا . وقابلوني بعاصفة من الترحيب، وعانقني قائدهم . وفي نفس الوقت قدموا لي ولرفيقي شارات تحمل أسماءنا كان علينا أن نعلقها على صدورنا كما لو كنا سندخل إحدى المنشآت النووية السرية . ولم يكن هناك احتمال أن نضل الطريق أو

أن نفقد هويتنا، فإن الشارات، التي أعدناها عند مغادرتنا المبنى، كانت تعبيراً مؤثراً عن كفاءتهم الإدارية.

قضيت أربع ساعات في السفارة مع الطلبة، منها ثلاث ساعات في المناقشة وساعة واحدة خصصت للقيام بجولة مع عدد منهم في مجمع السفارة . أكد لي الطلبة ابتداءا أنهم وجدوا السفارة مجهزة لتحمل حصار قد يدوم خمسة أعوام ، واصطحبوني إلى مبنى مكتظ بكميات هائلة من الطعام- الكورن فليكس، والبيض ، وعلب التونة والسردين، والجبن وخلافه، وبينما هم يدفعون الباب لفتحه قالوا بنبرة تنم عن فرحة النصر " أنظر إلى هذا " . فقلت هذه ليست تجهيزات للحصار، فهذا هو الكانتين، فسألوني "ما هو الكانتين " ، فبينت لهم أنه نوع من محل البقالة التعاوني يوجد منه في كل المؤسسات الأمريكية في الخارج سواء كانت مدنية أو عسكرية. وأعتقد أنهم أصيبوا بشيء من خيبة الأمل لاضطرارهم أن يتخلوا عن فكرة حصار الأعوام الخمسة.

وكان من الواضح والجلي لي أن الطلبة تستبد بهم فكرة احتمال قيام الأمريكان بانقلاب مضاد آخر. إذ كانت تسيطر على عقولهم ذكريات عام ١٩٥٣. فكلهم كانوا يعرفون عن كتاب " كيرميت روزفلت " ، " الإنقلاب المضاد" وكلهم قرأوا مقتطفات منه. وعلى الرغم من أن الكتاب سحب قبل نشره ، بسبب تدخل الإنجليز أساساً ، الذين كان يهمهم ألا يعرف الدور الذي لعبوه هم وشركات البترول البريطانية في الإعداد للانقلاب ، على الرغم من هذا تسربت بضع نسخ وصورت في هذا الكتاب (الذي يحمل عنواناً فرعياً له دلالته " الصراع من أجل السيطرة على إيران ") يشرح روزفلت بالتفصيل، وكان آنئذ من كبار موظفي وكالة المخابرات المركزية. كيف تم التخطيط وتنفيذ العملية التي تحمل الاسم السري "آجاكس ". وكما يقول روزفلت : " كانت مغامرة مشتركة تحالف فيها شاه إيران ونستون تشرشل وأنتوني إيدن ومندوبون بريطانيون آخرون، والرئيس ايزنهاور وجون فوستر دالاس ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وكان الهدف من إقامة التحالف هو إسقاط الدكتور "محمد مصدق " رئيس وزراء إيران. ويصف روزفلت بالتفصيل الإجتماع الذي عقد في ٢٥ يونيو ١٩٥٣ في مكتب وزير الخارجية، وحضره كبار الموظفين والدبلوماسيين والعسكريين حيث قدموا تقريراً موجزاً عن عملية " آجاكس " التي كان البريطانيون قد أعدوا مسودتها الأولى مسبقاً) وفيما بعد، رفع دالاس، وزير الخارجية، الورقة المطبوعة التي تتضمن الخطة التي وضعت على مكتبه قائلاً : "هكذا إذن تخلصنا من هذا المجنون مصدق " . وقد تخلصوا منه فعلاً ، ولم يكن هناك طالب واحد داخل السفارة أو خارجها في ذلك اليوم غير مؤمن بأن ما قام به الأمريكيون في الماضي قد يحاولون القيام بمثلة مرة أخرى . ولم يكن هناك طالب واحد لا يعرف الملحوظة اقتبسها روزفلت في كتابه، والتي أدلى بها الشاه له بعد إنجاز عملية "آجاكس " بنجاح وبعد إسقاط "مصدق " والقبض عليه : " أنا مدين بعرشي لله ولشعبي ولجيشي- ولك " ، كان الطلبة يعتقدون بأن من الأربعة الذين عبّر الشاه عن عرفانه بالجميل لهم، لم يكن هناك سوى واحد يدين له الشاه حقاً بكل شيء وهو الأخير- وكالة المخابرات المركزية وممثلها "كيرميت روزفلت".

لم يكن قلق الطلبة بدون أساس، إذ أنه لم يكن من الغريب قط أن يبحث الأمريكيون عن بعض الوسائل التي يمكن استخدامها لتقويض سلطة " الخميني " ، التي كان يبدو في هذه الأيام أنها آخذة في الرسوخ يوما بعد يوم ، فكانوا يبذلون قصارى جهدهم في تدعيم " آية الله كاظم شريعة مداري " حتى يصبح مركز نفوذ منافس، كما كانوا يعملون بين الأقليات التي كانت على اتصال بهم في الماضي- مثل الأكراد والأذربيجانيين والبالوش (سكان منطقة بالوشستان) والعرب في خوزستان . وقد لعبت كل هذه الأقليات دوراً أو آخر في الثورة ولذا كانوا ينتظرون الثمار، وبدأت تساورهم المخاوف في أنهم إن لم ينتزعوا التنازلات من الحكومة المركزية في ذلك الوقت فإنهم قد لا يحصلون عليها إطلاقا، وكان الأمريكيون على استعداد تام للتلاعب بنفاذ صبرهم . وأصبح من المستحيل إقناع الطلبة أو "الخميني " أن رحلة الشاه إلى الولايات المتحدة لا تمثل بداية مرحلة جديدة في الهجوم الأمريكى المضاد الذي تشكل نشاطاتهم داخل إيران جزءاً منه.

وجدت الطلبة واعين تماماً بأن النضال الذي بدأوه سيكون طويلاً وعسيراً وكانوا موقنين باستحالة الإجابة لمطلبهم الخاص بإعادة الشاه وأمواله إلى إيران ، ولذا كان عليهم إعداد أنفسهم لعملية طويلة. فقام الفريق المقيم داخل السفارة بتقسيم العمل بين عدد من اللجان، فتولت إحداها مسؤولية تزويد الرهائن وحراسهم بمؤن الطعام . وبالطبع كان من الممكن تزويد الأمريكيين بالطعام المناسب من "مؤن الحصار" التي أعدوها على أن يضاف إليها الفواكه والخضروات الطازجة التي تجلب من خارج السفارة. أما الطلبة أنفسهم فلم يكونوا متلهفين على تناول الطعام الأمريكي خوفاً من احتوائه على لحم الخنزير.

وتولت لجنة أخرى مسؤولية الإعلام- مهمتها إصدار البلاغات والبيانات اليومية التي تقدم التقارير الموجزة للصحفيين الأجانب الذين ينتظرون في الخارج ولجنة ثالثة لإدارة مجمع السفارة. بينما قامت اللجنة السياسية بالاتصال بالمجلس الثوري . وقام " المرابطون " بأداء المهام الموكلة إليهم بالتناوب حتى يتسنى لهم العودة للجامعة ليستمروا في دراستهم . ولذا كان من الممكن مشاهدة تيار مستمر يذهب ويجيء من الباب الخلفي بين الجامعة والسفارة - وتركزت القيادة في يد مجموعة تطلق على نفسها اسم "الهيئة التنفيذية للمرابطين في السفارة الأمريكية".

كانت هذه جماعة فريدة- مجتمع مغلق يشبه الرهائن التى أمسك بها من بعض الوجوه، فقد كانوا منعزلين وملتفين على ذواتهم وبطريقتهم الخاصة. كانوا جماعة واعية تمام الوعي بالسلطة التي تمارسها، فخورة بأن أنظار العالم مركزة عليها . عاش هؤلاء الشبان والشابات حياة محفوفة بالمخاطر لعدة أعوام متخفين من الشرطة وعانى الكثير منهم على يد " السافاك " . والآن أصبح كل ما كانوا يقولونه ويفعلونه يحظى باهتمامات ميكروفونات التسجيل وأدوات تصوير التليفزيون الدولية ، المنتظرة خارج بوابات السفارة في تلهف شديد. لقد كان تغيراً مذهلاً ، وتكون لدي الانطباع أحياناً أنهم كانوا يتحدثون إلى أنفسهم أكثر من تحدثهم لأي شخص آخر، كما لو كان من العسير عليهم تصديق حرية الكلام والفعل التي أحرزوها.

ويبدو أن كل عضو من أعضاء هذه الجماعة كان على استعداد دائم للدخول في مناقشات لا نهاية لها عن طبيعة المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية. وكانوا لا يكنون الاحترام إلا لشخص واحد " الخميني " كما كانوا على استعداد لتحدي الرئيس كارتر أو أي شخص آخر، ولا يكترثون على الإطلاق بأي كلام عن القانون الدولي ، مؤكدين أن الثورة قد خلقت قانونها الخاص بها، ولذا لا يمكنها بأن تعترف بأي سلطة أخرى غير نفسها. كان يخامرني الإحساس أنني وسط جماعة تتسم بالإخلاص الذي لا حد له، ولكن تنقصها الخبرة بشكل محزن . وحينما سألتهم عن الهدف الحقيقي لما كانوا يقومون به في السفارة، أخبروني أنهم يودون أن يرغموا الأمريكيين على كشف حقيقتهم : " نحن أول شعب على وجه الأرض وضع الامبرياليين في حجمهم الحقيقي " . واضطررت آسفاً أن أعبر لهم عن اختلافي معهم في وجهة النظر ، فأقوالهم لم يكن لها أساس قوي . فنحن في مصر أثناء حرب السويس هزمنا امبراطوريتين قديمتين . كما أنجز عرب آخرون – مثل الجزائريين نفس الشيء . وماذا عن الفيتناميين – ألم ينجحوا في ان يبينوا للعالم حدود القوة الأمريكية ؟

***

وكان الاجتماع الأول بيني وبين الطلبة قد تم في صالة الاجتماعات الكبيرة في مبنى الملحق التجاري . جرت المناقشة فيه بخليط من اللغتين العربية والانجليزية ، وقام بدور المترجم شاب منهم يعرف شيئاً من العربية تلقى تدريبه مع الفدائيين الفلسطينيين في لبنان . ولكنه بعد قليل أصابه التعب ، كما وجهت بعض الانتقادات لترجمته ، ولذا جاء طالب آخر من آخر صالة الاجتماعات اقترح أن

تستخدم اللغة الانجليزية على أن يقوم هو بدور المترجم . وتم ذلك بالفعل ، وسجلت المناقشة كلها على شريط حتى يتسنى لزملائهم الغائبين أن يستمعوا إليها .

حضر الاجتماع ما بين سبعين إلى ثمانين طالباً ، منهم عشر فتيات ، وكانت أعمار معظمهم ما بين التاسعة عشرة والخامسة والعشرين تماماً . وأطلق بعضهم لحاهم ، وكانوا يرتدون خليطاً غير تناسق من الثياب التي كانوا يرتدونها في منازلهم وأشياء أخرى أخذوها من السفارة مثل البنطلونات الجينز والسترات العسكرية . وتركت الفتيات انطباعاً أنهن أكثر صلابة حتى من الفتيان – وبدت بعضهن كذلك إلى درجة تكاد تكون عدوانية . وكن يرتدين ملابس تصورنها تعبيراً دقيقاً عن الاسلام بما في ذلك الشادور دون الحجاب . [**الانطباع العام الذي خلق في مخيلة الكثيرين في الخارج بأن ارتداء الشادور في إيران الثورية هو انطباع غير صحيح . وكمحاولة للتحقق من مدى صحة هذا الانطباع طلبت من زميل لي بعد عدة أيام من اقامتي في إيران أن يستفسر عن عدد العاملات الفتيات في وزارة الخارجية ويرتدين الشادور وكانت النتيجة فتاتين فقط من خمسين فتاة**] .

وبعد قليل انضم لنا بعض الطلبة الذي جاءوا مباشرة من الجامعة ، ولذا عند نهاية الاجتماع كان عددهم يربو على المائة .

كانت مناقشتنا ساخنة حية، وكانت النقطة الرئيسية التي عادوا إليها دائماً هي أن الإسلام يمثل الإجابة الوحيدة الممكنة على تحدي الغرب، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن أياً منهم يعتنق الشيوعية.

وعلى الرغم من عمق احترامهم لعبد الناصر ولمصدق بطبيعة الحال فقد كانوا يشعرون أن هذين الزعيمين أكدا على الفكرة القومية أكثر من تركيزهما على الإسلام ، وأن هذا هو ما أدى بهما إلى تقبل الحلول الوسط التي تحفّها المخاطر. وعبارة " حلول وسط " هي عبارة مليئة بأسوأ الإيحاءات بالنسبة للمرابطين . وأخبرتهم أنني من المؤمنين بالقومية العربية ، وأنني ثابت الإيمان بها. وبينت لهم أن العنصرين الأساسيين اللذين جعلا العرب أمة هما اللغة والحضارة ، ولذا إذا ما تحدثت عن التاريخ العربي والقومية العربية فإننى - إلى حد ما- أتحدث في ذات الوقت عن الإسلام . ولكنهم رفضوا تقبل وجهة النظر هذه.

كانت المناقشات أحياناً تصل إلى درجة عالية من السخونة، الأمر الذي جعلني واعياً بالمصاعب الي أدت إلى استقالة " سنجابي " و " بني صدر " و " يزدي " من وزارة الخارجية، والتي جعلت من العسير على " قطب زادة " الذي خلفهم في هذه الوزارة ، أن يعمل على الإطلاق . ووجد " يزدي " أنه من المستحيل التحدث مع الطلبة، كما أخبرني فيما بعد. لقد كان في مقدورهم أن يحتفظوا بمثاليتهم، وهو أمر غير متاح لوزير الخارجية على حد قوله. وهذه هي المعضلة التي واجهتها الثورة من البداية - الصراع بين العقيدة والطبيعة البشرية، بين الدين والتاريخ، وبين المطلق والنسبي .

كانت آخر الكلمات التي سمعتها من الطلبة هي " لقد محونا خمساً وعشرين عاماً من تاريخ إيران " كانوا يصرون على أنهم احتلوا السفارة لأن مبانيها كانت تشكل مقر قيادة الثورة المضادة . وفيها تم التخطيط لإلقاء القبض على " مصدق " واغتيال "حسين فاطمي " زعيما المرحلة الأولى للثورة سنة ١٩٥٣. وهكذا وبعد ربع قرن ، محت قوى الثورة مأساة هزيمتها الأولى .

***

الفصل الثاني
الدب والاسد

قال المرابطون أنهم محوا خمساً وعشرين عاماً من تاريخ إيران، لكن الإحساس بالمذلة والهوان، الذي ولده فيهم التدخل الأجنبي ، الذي ما زال حياً في ذاكرتنم وذاكرة كل إيراني تقريباً ، يرجع إلى زمن بعيد يسبق الانقلاب المضاد الذي وقع عام ١٩٥٣. فإيران " وشأنها في هذا، شأن معظم البلاد التي كانت تعرف باسم بلدان الشرق الأوسط ، قد تأثرت بشكل عميق برياح التغيير التي كانت تهب عليها من الغرب بعنف متزايد، إزاء ذلك التقدم الذي حدث في القرن التاسع عشر. صحيح أن إيران لم تكن قط جزءاً من الأمبراطورية العثمانية ، لكن عندما تدهورت هذه الامبراطورية التي كانت بمثابة حاجز ضد التغلغل الغربي في المنطقة وكان حكامها الخلفاء حماة الشرعية الإسلامية، وأصبحت رجل أوروبا المريض- استيقظ الإيرانيون لمواجهة تحديات القوى والأفكار الجديدة.

لقد رجع كثير من المسلمين الذين راقبوا تزايد تأثير الغرب الذي كان يبدو كما لو كان عملية حتمية، إلى دينهم ليجدوا فيه السكينة والعون، كان المفروض أن الأمبراطورية العثمانية تستند إلى أساس ديني، لكنها مع ذلك كانت آخذة في الانهيار. لماذا؟.. كانت الإجابة، التي توصل إليها كثيرون، هي أن حكام هذه الأمبراطورية قد تخلوا عن تراثهم الديني، وأن السبيل الوحيد للخلاص هو العودة إلى الروح الأصيلة للإسلام . لذا تفجرت تلك الحركات الدينية المتزمتة في أطراف الأمبراطورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر- "الوهابية " في الجزيرة العربية و " السنوسية " في ليبيا و " المهدية" في السودان . هذه الحركات التي اتسمت بنوع من القبلية أدى إلى أنحسار نطاق تأثرها- لم تستطع أن تحقق بقاءها في النهاية إلا بارتباطها ببعض العائلات القوية. فليس مصادفة أن اثنتين من هذه الحركات تحولتا إلى نظم ملكية وراثية.

ومن أعظم مفكري الإسلام الذين يجلهم قواد الثورة الإيرانية والذي يرتبط اسمه برد الفعل لتحدي الغرب، رداً كان له أعمق الأثر وأبقاه ، هو جمال الدين الأفغاني .. فالأفغاني (١٨٣٩- ١٨٩٧) سافر كثيراً إلى بلاد مختلفة مثل الهند وروسيا وفرنسا وإنجلترا، كما عاش فترات طويلة من حياته في القاهرة والقسطنطينية. وكان أينما حل " يرى أن العالم الإسلامي واقع تحت الضغط الغربي، وبالذات إنجلترا. وكان يرى أنه لا ينبغي على الدول الإسلامية أن تخشى الهجوم العسكري الغربي المباشر (وإن كان ذلك بطبيعة الحال أدى إلى احتلال مصر) بقدر خشيتها من الأثر الهدام الخفي للفكر الغربي ، عن طريق الآثار المخربة للمادية والعقلانية والجماعات التبشيرية ". فهذه المؤثرات كلها هي الي أدت بالعالم الإسلامي إلى هذه الحالة من الضعف التي يعاني منها، لكن إذا ما تفكر المسلمون في دينهم وفهموه حق الفهم ، فمن المحتمل أن يكون لديهم من القوة الكافية- لمقاومة الغرب، مادياً وروحياً .

فالإسلام، كما ذكرهم ، أكبر بكثير من مجرد كونه صلوات وشعائر، بل ينبغي أن ينظم كافة أوجه المجتمع، علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، و بسلطات الدولة، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى . لو أدرك الناس ذلك فقط ، لكان الإسلام هو الدين الكامل الشامل . لكن الأمر يحتاج إلى نهضة وإصلاح ديني.

كانت إيران هي إحدى البلدان التي رأى فيها الأفغاني أثر الغرب الهدام بشكل واضح للغاية. (ورغم أن الافغاني ولد في إيران إلا أنه كان يفضل أن يعده الآخرون سنيا من أفغانستان ، كما يدل على ذلك اسمه). فقد اكتشف أن هناك قوتين أوروبيتين عظيمتين، بريطانيا وروسيا، تتصارعان على " جثة إيران " على حد قوله. ولم يكن هذا القول مبالغاً فيه. فقد كانت هذه هي فترة حكم " نصرالدين شاه، الذي لا يضاهيه حاكم آخر، في سوء تصريف الشؤون المالية سوى الخديوي إسماعيل في مصر، لكن، حين نجد أن " فرديناند ديلسبس " أشهر صيادى الامتيازات الذين ازدحمت بهم مصر في عهد

إسماعيل، قد حقق على الأقل مشروع قناة السويس، فإننا نجد أن البارون " جوليس دي روتر " ، أسوأ الأوروبيين سمعة، والذي كان يأمل في نهب إيران، لم ينجز شيئاً على الإطلاق . وكتب " كيرزون " عن الامتيازات التي منحت لروتر من " نصر الدين شاه " عام ١٨٧٢، يقول : " عندما نشرت الامتيازات، وجد أنها تحتوي على أضخم تنازل عن جميع مصادر الثروة الصناعية لصالح أيد أجنبية، لم يكن يراودها في أحلامها مثل هذه الغنيمة التي لم تتحقق لهم من قبل في التاريخ ". فلقد غطت هذه الامتيازات كل المشروعات الموجودة والممكن إقامتها في جميع المجالات- السكك الحديدية، والترام، والمناجم، والترع ، والطرق، والأشغال العامة، والمطاحن، والمصانع ، ومكاتب البرق، والبنوك، والالتزام بالجمارك لمدة خمس وعشرين عاما....

كل ذلك نظير مبلغ سنوي قدره ١٠.٠٠٠ "عشرة آلاف جنيه استرليني ". وأدت إذاعة هذه التنازلات إلى سخط عارم، هدد عرش الشاه . وقد أجبر السخط الشعبي ، بالإضافة إلى الاحتجاجات الروسية الرسمية، الشاه إلى التراجع، وألغيت الامتيازات.

***

بعد مرور ثمانية عشر عاماً تم الفصل الثاني من مسرحية الامتيازات...

في ٨ مارس ١٨٩٠، منحت حكومة الشاه امتيازاً إلى رجل إنجليزى يدعى ج. هـ . ف. تالبوت. يقضي بإنتاج وبيع وتصدير كل الدخان الإيراني لمدة خمسين عاما، مقابل مبلغ ١٥.٠٠٠ " خمسة عشر ألف جنيه استرليني " تدفع سنوياً إلى الشاه ، علاوة على ريع صافي الربح الذي قد يؤول إلى الشركة التي ستستفيد بالامتياز. في هذه المرة تم التوصل إلى طريقة فعالة لمقاومة التدخل الأجنبي الذي سبب كثيراً من المرارة والامتعاض . فقد أصدر الحاج "ميرزا شيرازي " زعيم المجتهدين ، فتوى، أعلن فيها أن استعمال المؤمن للدخان بأي شكل من الأشكال يعتبر رذيلة.

وقد أطاع الناس هذه الفتوى بإجماع أدهش المراقبين الأجانب. وانتشرت الإضرابات، وتم سحب الامتياز. وقبل وقوع ذلك قدم الوزير الإنجليزي في طهران تقريراً إلى وزارة الخارجية يقول فيه:

" نحن نشهد الآن ثورة " ،

لقد لحقت الهزيمة بالحكومة وبأصحاب الامتيازات من الأجانب بسبب ذلك الاتحاد الذى قام بين رجال الدين والإصلاحيين، يساعدهم ذلك الشعور المتزايد بالوعي القومي، وبعد ستة عشر عاماً كان نفس هذا الخليط من القوى هو المسؤول عن نشوب ثورة حقيقية. وفيما بين هذين التاريخين استمر السخط في الازدياد. فطرد الأفغاني من إيران عام ١٨٩١، واغتال أحد أتباعه نصر الدين شاه في أول مايو ١٨٩٦ بعد حكم دام تسعة وأربعين عاماً . وخلفه مظفر الدين شاه، وهو شخصية تتميز بالضعف أكثر منها بالسوء .

كانت العشر سنوات الأخيرة من القرن الماضي والأولى من هذا القرن، حقبة مليئة بالغليان السياسي لكل تلك البلدان في الشرق الأوسط ، التي كانت خاضعة لتدخل القوى الأوروبية أو لوجود قوات عسكرية أوروبية بها بالفعل. فقد أدى عجز الحكومات الأوتوقراطية عن التصدي لتدخل القوى الأوروبية، إلى إعطاء الدوافع للمطالبة بالإصلاح السياسي . فشهدت هذه الفترة تكوين الحزب الوطني في مصر بزعامة مصطفى كامل، وجمعية الاتحاد والترقي في تركيا، أما في إيران فقد أرغمت سلسلة من الإضرابات والاحتجاجات الشاه عام ١٩٠٥، على أن يوافق على الدستور، ويدعو لعقد أول مجلس (برلمان). كان هذا هو الدستور الذي أصرت الحركة الشعبية التي قامت عام ١٩٧٨- ١٩٧٩ م، على

أن يقوم الشاه بتطبيقه، وناضل من أجله أساساً رجال مثل السيد " محمد الطباطبائي " والسيد " عبد الله البهبهانى " الذين أصبحوا من أبطال الثورة الإيرانية الأخيرة.

لم يتمتع الاصلاحيون بانتصارهم لفترة طويلة. فقد كان الموقف في إيران معقداً ، لأن اثنين من القوى العظمى هناك، بريطانيا وروسيا، أخذتا تواجهان بعضهما بنفس القوة وبنفس الإصرار. وهذا كان يعني أنه لم يكن من العسير بالنسبة للشاه أن يثير حفيظة كل منهما ضد الأخرى حتى تتحقق مصالحه.

وبعد أكثر من عام قام "مظفر الدين شاه " بتأييد من روسيا بالتصدي للحركة الثورية، فألغى الدستور وهاجم المجلس وفرقه.

لكن الشيء الذي أحزن الإيرانيين كثيراً في الأمر كله هو سلوك بريطانيا.
فقد كان من المتوقع من القياصرة، الذين كانوا يقاومون فكرة الدستور في بلادهم، أن يعارضوا إقامته في بلد تقع على حدودهم.

أما البريطانيون فقد حظيت الحركة الدستورية بتشجيعهم، كما اعتبر الإيرانيون الممارسات البرلمانية البريطانية نموذجاً يحتذى، وكان من نتيجة ذلك، أن أكثر من عشرة آلاف من الإصلاحيين الذين كانوا يطالبون بالدستور اعتصموا بالسفارة البريطانية، وبقوا فيها لعدة أسابيع، إلى أن يغير الشاه من سياسته . لكن بعد عام واحد فقط ، وفي أغسطس عام ١٩٠٧، وبعد مفاوضات سرية طويلة، أعلنت الحكومتان البريطانية والروسية ، أنهما وقعتا على معاهدة تم بمقتضاها تقسيم إيران إلى ثلاثة أجزاء، منطقة نفوذ روسية كبيرة في الشمال، ومنطقة نفوذ بريطانية صغيرة في الجنوب، ومنطقة محايدة تشمل طهران في الوسط .

***

كانت الحاجة إلى مثل هذه المعاهدة، قد أملتها الأوضاع في أوروبا وبخاصة قوة المانيا المتزايدة تحت شعار " الاتجاه نحو الشرق " التي أصابت كلا من لندن وبطرسبرج بالذعر. ولكن كان هناك عنصر جديد كذلك بالإضافة إلى العناصر السابقة. سمع عنه كثيراً فيما بعد، وهو، البترول . إذ بدأ الاهتمام المتزايد بهذه المادة في الدول الغربية الصناعية ، وكانت إيران إحدى البلدان التي كان يعتقد باحتمال وجود البترول فيها. وكانت كل الشواهد الجيولوجية تشير إلى شمال البلاد ، منطقة النفوذ الروسي، على أنها المنطقة التي يمكن أن يؤدي التنقيب فيها إلى نتائج إيجابية، لكن الذي حدث هو أن البترول استخرج لأول مرة عام ١٩٠٨ عند "مسجدي سليمان " في المنطقة الإنجليزية بالجنوب. ولعدة أعوام ظلت آبار الجنوب الغربي هي أكثر الآبار إنتاجية في منطقة الشرق الأوسط.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، كانت إيران، رغم حيادها الإسمي ، مسرحاً للحرب، فقد احتلت الجيوش الإنجليزية والروسية بعض أجزاء منها، لكي توقف تقدم الالمان والأتراك. وإذا عدنا إلى عام ١٨٧٩ م. نجد أن الروس كانوا قد طلبوا من الشاه، القيام بتشكيل ما يسمى ببوليس الأقاليم في الشمال، ويطلق عليه فرقة القوزاق، تضم ضباطاً روسيين، وضباط صف إيرانيين، ومجندين، وقد قامت هذه الفرقة عام ١٩٠٧، بقذف المجلس بالقنابل وأعادت الشاه إلى العاصمة.

لكن عندما اندلعت الثورة الروسية عام ١٩١٧، انسحب الضباط الروسيون تاركين الفرقة في أيدي ضباط الصف الإيرانيين .

وكان من أكثر أفراد هذه الفرقة وعياً وذكاء : رقيب يدعى " رضا ميزرا " ، وقد عين وكيلاً لقائد فرقة القوزاق هذه، عن طريق تدخل قائد القوات البريطانية في إيران، الجنرال " أدموند ايرونسايد"، لأن البريطانيين كانوا مهتمين بملء الفراغ الذي تركه الانسحاب الروسي .

وبعد الحرب مباشرة كانت إيران في حالة من الفوضى الشاملة. لكن نمو الوعي القومي الذي أثارته الحرب ترك أثره العميق عليها ، شأنها في ذلك شأن بقية دول الشرق الأوسط . فالعرب في كل مكان كانوا يطالبون بالاستقلال، حيث صدقوا ما وعدهم به الحلفاء (نقط ويلسون الأربع عشرة)، فمصر كانت في حالة غليان، وفي تركيا كان مصطفى كمال يحاول الإصلاح بتحويل نواة الامبراطورية التي تحطمت إلى دولة صغيرة لكن متجانسة . لم يكن من الغريب والظروف كذلك أن يقوم " رضا ميزرا خان " (كما كان يدعى عندما أصبح ضابطاً) وهو رجل ذو عزيمة وإصرار حديدي، بالاستيلاء أولاً على فرقته، ثم على طهران، وأخيرا على البلد كله.

قام " رضا خان " بخلع آخر شاه من أسرة القاجار، وحظي بالتشجيع بأن يقتفي أثر جاره مصطفى كمال، الذي خلع آخر سلطان تركي ، ويعلن إيران جمهورية. لكن العصر كان عصر ملكيات آنذاك في الشرق الأوسط.

فلم يكن هناك الملك فؤاد في مصر وحده فحسب، وعيناه على كرسي الخلافة الشاغر، بل كانت هناك عروش جديدة خلقت ليشغلها أبناء الشريف حسين ، الذي عين نفسه ملكاً على الحجاز- وعرش لفيصل في بغداد، وآخر لعبد الله في الأردن.

و في الجزيرة العربية أصبح "عبد العزيز بن سعود " ملكاً أيضاً وأخذ يعزز من قوته . لذلك حين أعرب " آيات الله " عن رأيهم في أن النظام الجمهوري غريب على تقاليد إيران لم يكن " رضا خان " في حاجة إلى كثير من الإقناع فأعلن نفسه شاها على إيران سنة ١٩٢٥، وقام بوضع التاج على رأسه بيديه في الثاني من ابريل من العام التالي .

كان الشاه رضا من أصل ريفي وأمياً تماماً ، وإن كان قد علم نفسه القراءة والكتابة بعد أن أصبح ضابطاً. ولكي يعزز عرشه كان عليه أن يضفي على نفسه نوعاً من الشرعية تحل محل شرعية المولد. وقد أنجز ذلك بعدة سبل . فعاد إلى الوراء في تاريخ إيران، إلى ما قبل أسرة الكاجار الذين خلفهم، واتخذ لقب " بهلوي " للأسرة التي كان يأمل في تأسيسها ، و " بهلوي " هو اسم اللغة التي كانت سائدة في إيران قبل الإسلام . وغير اسم البلد كذلك من " فارس " إلى اسم أكثر اتصالاً بالماضي هو" إيران".

ولسوء الحظ كان جشعه أسوأ من جشع حكام أسرة الكاجار الذين سبقوه وهكذا استولى على ثرواتهم، وعندما تنازل عن العرش عام ١٩٤١ قدرت ممتلكاته بألفي قرية، كما كان ربع مليون من رعاياه يعملون مباشرة في الارض التي كان يمتلكها.

في أواخر الثلاثينات، طرأت للشاه فكرة أخرى . فإن ابنه الأكبر " محمد " وصل إلى سن الزواج. فهل يوجد شيء أفضل من مصاهرة أعرق ملكية في الشرق الأوسط ، أسرة محمد علي في مصر، كوسيلة يثبت بها أن أسرته مقبولة ضمن مجموعة العائلات المالكة في المنطقة.

كان هذا يعني تغيير الدستور الذي ينص على أن تكون زوجة الشاه إيرانية المولد، لكنه لم يكن من الرجال الذين يعوقهم مانع شكلي كهذا.

وهكذا جرت مفاتحة القاهرة بشكل مبدئي ووجدوا في شخص علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي أذناً صاغية- كان علي ماهر رجل الملك أيام حكم فؤاد . وكان مصراً على أن يكون ذا فائدة لابنه الملك فاروق الذي خلفه على عرش البلاد عام ١٩٣٧. وقد خلف مذكرة في قصر عابدين كتبها بنفسه، تبين أنه كان يفكر بطريقة تستطيع الملكة فيكتوريا أو بسمارك أن يفهماها. لكنها كانت غير مناسبة في الشرق الأوسط في الثلاثينات. إذ يتساءل علي ماهر في مذكراته محبذاً المصاهرة الإيرانية : " ان للملك فاروق أربع أخوات ، و أليس من الممكن أن يصبحن وسيلة لنشر نفوذ مصر في المنطقة كلها، وبقليل من الحظ يمكن أن توجد لهن عروش مختلفة ، على أن تكون طهران هي البداية ".

ورحب فاروق بالفكرة. وفي أوائل عام ١٩٣٩، وصل ولي العهد "محمد رضا " إلى القاهرة. وقد اختبرت أكبر الأميرات الأربع ، الأميرة الرقيقة الجميلة فوزية، لتصبح امبراطورة إيران المستقبلة. وحينما تفحصوا هذا الشاب بكثير من حب الاستطلاع في البلاط المصري المحنك، بدا لهم خجولاً إلى درجة محرجة، مفتقدا للثقة بالنفس.

ولو عرفوا المزيد عن أسلوب تربيته ، لما تعجبوا ولاستطاعوا أن يكونوا أكثر تفهما.

كان عمر الأمير ست سنوات عندما بدأ أبوه مسيرته إلى طهران في المرحلة الأولى لصعوده إلى السلطة. لذا فقد ولد الأمير وقضى سنواته الأولى الهامة من حياته في المساكن البسيطة للعسكريين الإيرانيين المتزوجين . ثم تغير المشهد بطريقة درامية. وفجأة وجد أنه يجب عليه أن يتعود على حياة القصور تحيطه وجوه غير مألوفة ، ويؤدي واجبات جديدة. في تلك الآونة بدأ تعليمه أيضاً ، وعلى الرغم من أنه كان طفلاً ذكياً شغوفاً بالعلم ، فقد تحول تعليمه إلى كابوس بالنسبة له.

وخلال إحدى محادثاتي معه، ضرب لي الشاه مثالين عن حياته عندما كان ولياً لعهد الشاه رضا. أخبرني كيف كان الشاه يصر على الحضور بصفة دورية ليرى مدى تقدم تعليم ابنه الأكبر. فكان المدرسون والطالب يعدون بشكل بالغ الدقة " لأيام التفتيش هذه " كما كانوا يطلقون عليها . فكانوا يراجعون الأسئلة التي قد يسأل فيها الشاه ، والأجوبة التي على الأمير أن يدونها ، وكانوا يقومون بتجربة كاملة لذلك مرة تلو الأخرى ، إلى أن يتأكدوا من أن ولي العهد يجيب بطريقة تشرف الجميع. لكن عندما كان يدخل الشاه بخطى واسعة وبعينيه المتوهجتين وشواربه المنتصبة ، مرتدياً زيه العسكري الكامل، كان المدرسون يصابون بالارتعاش وينطقون كلاماً غير مترابط ، وكان ولي العهد الصبي يصاب بالذعر وتمحى من ذاكرته كل المحفوظات ، وكان الشاه يصيح ملقيا بإهانات لا تستعمل إلا في الثكنات العسكرية على كل من حوله، ويصف ابنه بأنه أبله ، أما ما يسمى بالمدرسين فهم جهلة، وكانت المسألة تستغرق وقتا طويلا ليستردوا قوتهم ، بعد ذلك يبدأ الخوف من " يوم التفتيش " ، التالي يلوح مرة أخرى .

والمثال الثاني الذي أخبرني به الشاه عن طفولته ، كان عندما قرر والده أن كل التعليم النظري الذي يحصله، ما هو إلا مضيعة للوقت ، وأن التدريب الوحيد الذي يحتاجه حاكم إيران القادم هو كيف يصبح جندياً . وصدرت الأوامر بأن يستبعد سريره لكي ينام على مرتبة جنود خشنة ، ولم يعد السرير إلا بعد تدخل والدته، التي كانت تدعى " تاج الملك " وتنحدر من أسرة أفرادها من ملاك الأراضي، وتزوجت من رضا خان بعد أن أصبح ضابطاً ، وكان لها بعض النفوذ عليه، وإن كانت قد استاءت كثيراً حينما تزوج عليها مرتين بعد ذلك ، لكنها كانت هي التي صاحبته في منفاه بأفريقيا ، كما كانت معه حينما أدركه الموت.

كانت لولي العهد، شقيقة توأم، الأميرة أشرف، والتي كان مقدرا لها أن تلعب دوراً هاماً في السياسة أثناء حكم أخيها. فهي امرأة ذات شخصية قوية وفي ذات مرة في قصرها سنة ١٩٥١ وفي حديث طويل

على غداء معها ومع زوجها قالت لي أن والدها الشاه كان معجبا بشخصيتها الجادة وصلابتها، وكان يعتقد أنها تشبه شخصيته إلى حد كبير، وإنها سمعته بنفسها كما قالت يردد محتجاً على المقادير، " بأن الطبيعة لا بد وأن تكون قد خلطت الأمور في رحم زوجته، إذ كان يجب أن تكون أشرف هي الولد، ومحمد رضا هو البنت "، لم يكن الشاه الأب ماهرا في تغطية شعوره، إذ أنه بإفصاحه بشكل واضح عن عدم رضاه عن ابنه - بل يكاد يكون احتقاره- لم يسهم كثيراً بشيء في زيادة ثقة الأخير بنفسه .

صدمت الأميرة فوزية صدمة بالغة عندما قابلت خطيبها لأول مرة - فلقد أطلعوها على صور بدا فيها ذو شخصية . لكنه في الواقع بدا سقيماً وتعيساً . وفهم فاروق حقيقة مشاعر أخته، وتبنى موقفاً متعالياً تجاه الشاهبور (لقبه الرسمي كولي عهد) .

وبادله ولي العهد نفس الشعور واكتشف في شخصية فاروق ما وصفه هو بنفسه فيما بعد بأنه " ميول إجرامية "، ومن ذلك، أعطى فاروق التعليمات لعلي ماهر بأن يقنع أخته، وأن يوضح لها أهمية نشر نفوذ مصر في الشرق الأوسط ، ومدى أهمية أن يكون حاكم إيران المقبل نصف مصري، ووافقت فوزية العاقلة، على إتمام الزواج من أجل مصالح الدولة، لكن، وكما قالت فيما بعد " كانت تشعر بأنها تلعب دوراً فرض عليها في رواية تاريخية وهو دور لم تفهمه على الإطلاق "، أما رد فعل الملكة الأم، نازلي، فقد كان مباشراً، إذ قالت ما معناه وبطريقة عملية، فليتم الزواج، لكن " عليكم من فضلكم إحضار أحد كي يعلم هذا الشاب قواعد الإتيكيت، لأنه لا يعرف آداب المائدة "..

تم الزواج في الخامس عشر من مارس عام ١٩٣٨، ولدهشة الجميع لم يكن زواجاً تعساً لكنه لم يكن بالأمر السهل أبداً بالنسبة للأميرة فوزية.

فلقد وجدت بلاط طهران ضيق الأفق بالنسبة للقاهرة. واتهمتها حماتها " تاج الملك " دونما سبب، أنها تجد التعامل مع الأرستقراطية الفارسية القديمة، الأمراء والأميرات من الكاجار، وأناس مثل قوام السلطنة، أمراً يسيراً على عكس تعاملها مع أصدقاء الشاه رضا العسكريين وزوجاتهم.

وكانت فوزية خائفة من لقائها الأول من حماها الطاغية العجوز، خاصة مما قاله زوجها عنه ، لكنها صمدت في وجهه.

نشبت الحرب العالمية الثانية بعد ذلك مباشرة. وتغير كل شيء. فقد رأى ملوك الشرق الأوسط الصراع بين الالمان والحلفاء بطرق مختلفة . فالهاشميون في العراق والأردن والملك ابن سعود راهنوا على انتصار الحلفاء، أما فاروق والشاه رضا، فقد توقعا وتمنيا، انتصار الالمان.

إن الشاه الذي كان يحكم حكماً ديكتاتورياً في بلده كان متعاطفاً بطبيعة الحال مع الديكتاتوريات الأخرى . أما فاروق الذي يمكن وصف أحكامه السياسية بالسطحية فقد ورث بعض الاتصالات مع فاشيست إيطاليا من أبيه الملك فؤاد. ولقد صدم هذان الحاكمان، كما صدم حكام آخرون، بسقوط فرنسا وظنا أن هذا سيؤدي إلى نصرسريع لدول المحور. كان الشاه على اتصال مستمر بالالمان، أما فاروق الذي كان مجال حركته محدوداً بسبب الإحتلال البريطاني، فقد أبقى على اتصاله بالالمان من خلال حماه يوسف ذو الفقار الذي عينه سفيراً لمصر في إيران، كما أنه في وقت من الأوقات بعث برسول خاص وثيق الصلات مع الالمان دون الرجوع إلى وزارة الخارجية.

بعد سقوط فرنسا أصبح تعاون الشاه مع الالمان أكثر وضوحاً ، وازداد عدد رجال الأعمال الالمان في طهران لدرجة ملفتة للنظر. لذا لم تكن مفاجأة له أن تقوم القوات البريطانية والروسية، بغزو بلده وإرغامه على التنازل عن العرش لإبنه ، وتم ذلك حينما قام الالمان بغزو روسيا في يونيو عام ١٩٤١.

وسنة ١٩٥١ وصف لي الشاه محمد رضا آخر لقاء له مع والده .... قال لي : " إنها كانت المرة الأولى في حياته التي رأى فيها والده يتصرف كأب وليس كملك أو قائد عام للقوات المسلحة. كانت الدموع في عيني الرجل العجوز عندما تقابلا، ولم يستطع الشاب أن ينطق بكلمة واحدة من شدة تأثره. وكانت ملاحظة الشاه عبارة عن سؤال : "هل تستطيع الاحتفاظ بالعرش؟ " .... ولم يقل الإبن شيئاً ، واستمر الأب في كلامه : " أنا لم أفشل في الاحتفاظ بالعرش لكن قوى أقوى منى أحكمت الحصار حولي . لقد احتفظت لك بالعرش، فهل تستطيع أن تحتفظ به؟ " .. ولم يملك الإبن إلا أن يومىء برأسه موافقاً . واستمر الشاه رضا قائلاً : " أنصت، يا بني ، لا تقاوم . فنحن والعالم أجمع لا نواجه عاصفة أقوى منا جميعاً . فاحن رأسك لها إلى أن تمر". ثم أضاف : " أنجب ابناً " ، ثم كرر ذلك ، " أنجب ابناً " . وخرج بعد ذلك من الحجرة إلى المنفى في جنوب أفريقيا، حيث مات هناك.

وهناك تكملة غريبة لكل ذلك، أثرت على العلاقات بين إيران ومصر. فقد أخذ الشاه رضا معه، حينما ذهب إلى المنفى، سيفاً جميلاً قديماً مرصعاً بالأحجار القديمة كان قد انتقاه من خزانة الأمبراطورية الإيرانية النفيسة ليلبسه يوم حفل التتويج . وعندما مات وضعت أرملته هذا السيف بجانبه في التابوت، وطلبت نقل الجثمان ليدفن في إيران . لكن السلطات الانجليزية والروسية، التي كانت تحتل البلاد، رفضت طلبها. وأرسل التابوت إلى مصر ووضع مؤقتا في مسجد الرفاعي [**ولقد كان مقدراً لثاني حاكم من أسرة بهلوي " الشاه محمد رضا بهلوي " أن يدفن في هذا المسجد بعد وفاته لى القاهرة عام ١٩٨٠. فحينما وصل الشاه إلى ملجأه السياسي الأخير في ربيع سنة ١٩٨٠، كان مضيفه الرئيس السادات يريد أن يبني له فيلا مناسبة مزودة بأسباب الترف على شاطى البحر الأبيض المتوسط بجوار منزله الصيفي بالقرب من الاسكندرية. وكان العمل قد بدأ فعلاً في هذه الفيلا، حينما اضطر الشاه للذهاب إلى المستشفى ليعالج مرة أخرى من السرطان . وكان هناك ثمة خوف من أنه قد لا يعيش بعد العملية، ولذا توقف العمل في فيلا البحر الأبيض ، وبدأ العمل في بناء مقبرة له في مسجد الرفاعي . وكان العمل يستأنف في الفيلا إذا كانت التقارير الطبية متفائلة، وفي المقبرة إذا كانت متشائمة.**]

وبعد انتهاء الحرب أصبح من الممكن دفنه في إيران . وأرسل التابوت إلى طهران . لكن عندما فتح التابوت لم يجدوا السيف. كانت تاج الملوك متأكدة من وجود السيف داخل التابوت. لأنها وضعته بنفسها، وخمنت أن التفسير الوحيد لاختفائه هو أن يكون فاروق قد سمع عن ذلك السيف، وأمر بفتح التابوت، ورأى السيف فأعجبه كثيراً واستولى عليه (وكان تخمينها صحيحاً).

وقد قاست فوزية من جراء ذلك. إذ حوّلت حماتها حياتها إلى تعاسة، إذ كانت توبخها بعبارات ساخرة مثل : " أهذه هي الطريقة التي يتصرف بها الملوك في بلدكم ؟ قد لا تكون أسرة بهلوي عريقة مثل أسرة محمد على، لكننا على الأقل لسنا لصوصاً ؟ " وهكذا. وبالطبع كان هناك كثير من الثرثرة حول هذا الحادث. وبدأت موجة من النقد انضمت إليها الأميرة أشرف العنيدة ، ومنها أن الملكة لم تكن إيرانية كما نص الدستور، ومما زاد الأمر سوءاً أن الملكة لم تنجب إبنا ، وإنما أنجبت إبنة فحسب. وعندما عادت إلى القاهرة لقضاء العطلة عام ١٩٤٨، قرر فاروق أن أسرة محمد علي قد تحملت ما يكفي من محدثي النعمة في إيران . وصدر الأمر لفوزية بعدم العودة ورتبت مراسم الطلاق في نوفمبر بالرغم من أن فوزية قد ألفت الحياة في طهران كما ألفت الحياة مع زوجها.